العلماء أسوة وقدوة

آية اللّه العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظله)

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين

وصلى اللّه على محمد وآله الطيبين الطاهرين

ولعنة اللّه على أعدائهم أجمعين

مقدمة المؤلف

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين، وصلى اللّه على محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

.. الحياة تجارب، وكلما كان الإنسان أعرف بتجارب الحياة، كان باستطاعته أن يبني لنفسه حياة أفضل، ولذلك يصرّ الكُتاب والمؤرخون على تسجيل التجارب حتى يستفيد منها الآخرون في حياتهم وخاصة إذا كان صاحب التجربة عالماً من العلماء، أو عبقرياً من العباقرة.

وهذا الكتاب في حجمه الصغير محاولة متواضعة في هذا المجال الذي لا يستغني عنه كل من يريد أن يعيش عيشة الأحرار، ويحاول أن يحيا بعزّ وسعادة، وخاصة رجال الدين الذين يهمّهم هداية الناس وإرشادهم إلى الحياة الفاضلة المرضية عند اللّه تبارك وتعالى، واللّه الموفّق وهو المستعان.

قم المقدسة

محمد الشيرازي

١

الدعاء والمصالح الإلهية

ينقل عن سماحة آية اللّه العظمى الميرزا الكبير السيّد ميرزا محمد حسن الشيرازي (قدس سره) أنه أصبحت له ـ بعد قصّة التنباك ـ شخصية عالمية بارزة، بحيث كان السلطان عبدالحميد(١) يثني عليه ويحترمه، فلمّا مرض الميرزا مرضه الأخير الذي توفّي فيه، أقام المسلمون لشفائه ـ وفي كل أنحاء العالم الإسلامي ومنها البلاد العثمانية ـ مجالس الدعاء ووضع القرآن على الرؤوس تضرّعاً إلى اللّه سبحانه وتعالى ليعافيه.

ومع هذا كانت صحّة الميرزا تتدهور يوماً بعد يوم نحو الأسوأ إلى أن حضرته حالة الاحتضار فإذا به يفتح عينيه فتوجّه من كان حوله وقالوا له: لقد وصلتنا من غالب البلاد الإسلامية مثل إيران والعراق والقفقاز والبادكوبة وطاجيكستان وبعض مدن أفريقيا وغيرها اتّصالات وبرقيّات كثيرة تعبّر عن صدق دعوات أصحابها بالشفاء العاجل لسماحتكم، وقلق الجميع عمّا أصابكم.

فلمّا سمع الميرزا ذلك أجابهم بكلمة خالدة سجّلها التاريخ قائلاً: (يا مَن لا تبدّل حكمته الوسائل)(٢) ثمّ غمض عينيه وردّد الشهادات الثلاث وفارقت روحه الطاهرة الحياة (قدس اللّه سرّه).

ومن الواضح: إنه يلزم بنا شرعاً أن ندعوا ونتضرّع ونتوسّل إلى اللّه تعالى ونطلب منه حوائجنا بإلحاح ـ كما في الروايات(٣) ـ وفي نفس الوقت نفوّض إليه أمرنا، لأنّه تعالى هو الأعرف بمصالحنا، فإن شاء أجابنا، وإن شاء عوّضنا، ولكن الحكمة ـ كما قال الميرزا نفسه ـ: قد اقتضت باستضافة الميرزا إلى رحاب رحمة اللّه ورضوانه، فجرى القضاء وانتقل سماحته إلى جوار أولياء اللّه وأصفيائه محمّد (صلى الله عليه وآله) وآله الطاهرين (صلوات اللّه عليهم أجمعين) وعلى أثره لبس العالم الإسلامي أبراد العزاء وراح يموج بأهله في مجالس الفاتحة إلى روحه الزكيّة ويقيم محافل التأبين إحياءً لذكراه.

٢

المواساة شيمة الأوفياء

ذكر أحد تلامذة المرحوم آية اللّه العظمى الحاج آقا حسين القمي (قدس سره): أنه كان للمرحوم مجلس بحث

١ـ السلطان عبد الحميد هو أحد حكّام الدول العثمانية.

٢ـ الصحيفة السجادية: الدعاء الثالث عشر.

٣ـ بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٤٢ ط طهران.

عامر يضم بين جوانحه كبار العلماء والمراجع المعروفين في عصره(٤).

وكان المرحوم القمي إذا جاءته استفتاءات مهمّة من مقلّديه اغتنم مجلس بحثه وعقد مع هؤلاء المراجع الحاضرين في البحث مجلس شورى الفقهاء وطرح عليهم الاستفتاءات وناقشهم في آرائهم وبالتالي كان يخرج من مجلسه هذا بآراء صائبة نتيجة لتلاقح الأفكار وتبلور الآراء ويجيب بها مستفتيه.

وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على شموخ فكره، وعلوّ همّته، وطيب نفسه، وحقيقته وواقعيّته، فإنه كان واقعياً إلى أبعد حدّ، حتّى أنه ينقل عنه:

أنّ تاجراً جاء إلى زيارة العتبات المقدّسة من إيران وكان من مقلّديه، فلمّا علم بأن المرحوم القمي مرجعه الكبير يسكن في دار مستأجرة وليس له دار شخصيّة جاء إليه وعرض عليه أن يسمح له أن يشتري لسماحته داراً يهبها له ليسكنها.

فلم يسمح له سماحته بذلك معتذراً بأن عليه أن يواسي أضعف الطلبة معاشاً، وكثير من الطلبة لا يملكون داراً، ومادام هناك طالب واحد لا يملك داراً شخصية، فلا يأذن لنفسه أن تكون له دار شخصية.

فقال التاجر: إنّ المبلغ ليس من الحقوق الشرعية وإنما هو تبرّع منّي.

فأجاب سماحته قائلاً: نعم وإن كان المبلغ تبرّعاً فإني لا أحب أن أعيش إلا مواسياً للطلبة الآخرين.

وهكذا كان المرحوم القمي قمّة في أخلاقه وسيرته، فقد عاش في دار مستأجرة ولم يملك لنفسه داراً إلى آخر حياته، وفي نهاية حياته نقل عنه خاصّته:

أنه اشتدّ به مرضه حتى أغمي عليه، فلمّا أفاق التفت إلى ذويه وخاصّته، وطلب منهم بإلحاح أن يُجلسوه، فتعجّبوا من طلبه ذلك وهو في هذه الحالة، لكنهم لما أجلسوه واستقرّ به المكان شخص ببصره نحو الباب وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ثم تشهّد الشهادات الثلاث وانتقل إلى جوار رحمة ربّه، (قدس اللّه سرّه).

وقد كنا ذهبنا مع الوالد(٥)(رحمة اللّه عليه) لزيارته في المستشفى.

٣

خاتمة الصالحين

في غداة كلّ يوم من أول الشهر كان المرحوم والدي(٦) يعطيني مبلغاً من المال ويأمرني بتسليمه إلى المرحوم الشيخ محمد الكلباسي ـ الموكل بتوزيع الحقوق الشرعية للمراجع شهرياً ـ لكي يوزّعه على الطلبة

٤ـ من أمثال السيد ميرزا مهدي الشيرازي (قدس سره)، والسيد عبد الهادي الميلاني (قدس سره)، والشيخ محمد رضا الأصفهاني (قدس سره)، والسيد الرامهرمزي البهبهاني (قدس سره)، وكذلك الشيخ محمد الشيرازي الذي كان يأتي من النجف الأشرف إلى كربلاء المقدّسة.

٥ـ المرحوم آية الله العظمى السيد ميرزا مهدي الشيرازي (قدس سره).

٦ـ المرحوم آية الله العظمى السيد ميرزا مهدي الشيرازي (قدس سره).

المتواجدين في كربلاء المقدّسة، وكان هذا دأب والدي (قدس سره) في صباح كلّ يوم من أوّل الشهر.

وفي يوم من الأيام والمصادف ليوم ٢٨ شعبان من سنة (١٣٨٠هـ) طلبني والدي ودفع لي ما كان يدفعه إليّ من المال صباح كل أوّل شهر، وأمرني بتسليمه إلى المرحوم الشيخ محمد الكلباسي ليوزّعه على الطلبة.

فاستغربتُ الأمر وقلت لسماحته: سيّدي نحن في أواخر الشهر الحالي، ولم يحلّ علينا الشهر الجديد بعد.

فأجابني سماحته قائلاً: نعم، وإني أعلم ذلك، ولكن ليس عليك إلا أن تسرع بالمال وتسلّمه إلى الشيخ، ثم أخرج من جيبه بعض الأوراق وكان فيها بعض الاستفتاءات التي كان قد أجاب عليها ودفعها إليّ وأمرني بتسليمها إلى أصحابها.

ثمّ اتّجه إلى الحوض ليتهيّأ إلى الصلاة، وكان الوقت قريب المغرب، تركته وهو يتوضّأ وإذا بصوت شقيقتي يلفتني إليه وهي تقول: أخي يا أخي أنظر ماذا أصاب والدنا؟!

فأسرعتُ إليه فوجدته مصاباً بالسكتة القلبيّة وهو على الحوض يتوضّأ، فاحتضنته ووضعته على بطانية قد فرشت من أجله، ثم طلبنا له الأطبّاء والدكاترة، فلما أجروا عليه الفحوصات الطبّية أعلنوا أسفهم وعذرهم عن معالجته، لأنّ الفحوصات كشفت عن مفارقته للحياة وهو في أثناء الوضوء وقد غسل يده اليمنى.

وممّا يبدو لي حسب هذه الواقعة العينيّة أنّ سماحته كان مستلهماً، أو أنه رأى حلماً في منامه يخبره عن ذلك.

وكيف كان: فإنّ هذا الأمر حسب تصوّري لم يكن أمراً عادياً، وإنما كان يرتبط نوعاً مّا بـ(ما وراء الطبيعة) والأمور الغيبيّة، إذ كان ذلك خلاف عادته، وإنما كانت عادته كما قلت: أن يدفع لي المال في الصباح الباكر من أوّل كلّ شهر لأسلّمه إلى الشيخ حتّى يتمّ توزيعه على الطلبة(٧).

٤

٧- ينقل عن الخطيب الشهير المرحوم الشيخ عبد الزهراء الكعبي (رحمة الله عليه) أنه أخبر سماحة آية الله العظمى السيد ميرزا مهدي الشيرازي (قدس سره) وذلك قبل وفاة السيد بثلاثة أيام بأنه قد رأى في منامه السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وهي (سلام الله عليها) تقول له: انت ولدنا السيد ميرزا مهدي الشيرازي وقل له: بأنّ أمّك الزهراء تقول لك: انّك ضيف علينا بعد ثلاثة أيام.

فلما أخبر الشيخ السيد بذلك سالت دموع السيد على خدّيه وأخذ يبكي ويقول: كيف بي ويداي من الحسنات خالية. يبكي ويكرّر العبارة مراراً، وذلك مع ما كان عليه من الزهد والتقوى وخدمة الإسلام والمسلمين.

وكان كما أخبر به الشيخ الكعبي (رحمة الله عليه)، حيث إنه لم تمض على السيد إلا ثلاثة أيام وإذا بالقضية المذكورة تحدث في آخر ساعة من اليوم الثالث، فيذهب وهو في حالة إسباغ الوضوء إلى لقاء ربّه ليحلّ ضيفاً على أمّه الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وآبائه الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين). الناشر.

حافظ القرآن في حماية اللّه تعالى

هذه القصّة نقلها لنا والدنا (رحمه اللّه) علماً بأنّ سماحته كان حافظاً للقرآن، وكان ملتزماً أن يقرأ في كلّ يوم بعض أجزاء من القرآن عن ظهر القلب، فتحدّث لنا قائلاً:

نقل لي أحد الصيّادين المحترفين للصيد ذات يوم وقال: إني خرجتُ إلى الصحراء (وأظنّه قال: كان ذلك في مدينة سامراء المقدّسة) أبحث عن صيد حتى وجدتُ شيئاً يتحرّك فوجّهت فوهة بندقيتي نحو المتحرّك تصوّراً منّي أنه صيد والعجيب أنه كلّما حاولت فتح النار باتّجاه الصيد وضغطت على الزناد ما كانت البندقية تطلق النار، وحين أُغيّر الاتّجاه يميناً أو يساراً كانت البندقية تطلق النار، ثم حين أعود وأُوجّه فوهة بندقيتي نحو الصيد كانت البندقية تعود وتتوقف عن الإطلاق.

كررتُ ذلك مراراً دون جدوى، فقلتُ في نفسي إن هذا لأمر عجيب لا يخلو من سرّ، فعليّ أن أقترب من الصيد وأكتشف سرّ الأمر.

فلمّا اقتربتُ من الصيد فوجئت بأنّه إنسان وليس صيداً، فازداد تعجّبي من ذلك، فدنوتُ منه ونقلتُ له القصّة متسائلاً عن السرّ الكامن في عدم عمل البندقية مع سلامتها كلّما وجهتُ فوهتها باتّجاهه؟!

فأجاب: الحقيقة إني حافظ للقرآن وإنّ حافظ القرآن هو في حماية اللّه سبحانه وتعالى، ومن كان في حماية اللّه تعالى لا يصيبه أذى.

٥

مقام القرآن

ذكر أحد الوعّاظ المطّلعين هذه القصّة قائلاً:

اتّفق جماعة ـ بُغية الالتزام بقراءة القرآن في كل يوم ـ على أن يقرءوا القرآن في صباح كلّ يوم (وهذا الأمر كان متداولاً في تلك الأيام ومتعارفاً حيث كان أكثر الناس يتلون القرآن في الصباح الباكر، وكانت بركات تلاوة القرآن أيضاً تعمّهم).

ولكن أحد هؤلاء المتّفقين على قراءة القرآن لم يلتزم باتّفاقه، كما أن إصرار أصدقائه عليه في الوفاء بالتزامه ـ مع ما كانوا يذكرون له من فوائد تلاوة القرآن في الدنيا وثوابها في الآخرة ـ لم يكن مجدياً في إقناعه، فأصرّ أحد أصدقائه في كشف السرّ الكامن وراء ذلك وأخذ يسأل منه عن سببه.

فأجاب بعد إصرار كثير قائلاً: إن اللّه سبحانه وتعالى قد سلب منّي التوفيق لتلاوة القرآن، وكلّما أردتُ تلاوته عرض لي ما يصدّني عنه.

فسأله الصديق: ألم تعرف سرّ ذلك؟

قال: بلى .

فقال بتعجّب بالغ: وما هو ذلك؟

فأجاب بامتعاض قائلاً: إنه كان لي مصحف جميل، وكنتُ أعتزّ به وأحتفظ به، وأتعاهده كثيراً، وأتلوه دائماً،

حتّى صادف أني سافرتُ إلى الحج، فكنتُ أحمله معي وإذا فرغتُ من الطواف في المسجد الحرام قرأت بعض آياته، وذات يوم مررتُ على مكتبة فوجدتُ فيها بين الكتب المعروضة للبيع كتاب ديوان شعر ليزيد بن معاوية قاتل الإمام الحسين (عليه السلام)، فأخذتُ الكتاب وجعلتُ أتصفّحه فوجدتُ فيه أشعاراً جميلة ففكرتُ في اقتنائه فسألتُ صاحب المكتبة عن قيمته، فوقع نظره على القرآن الذي كنتُ أحمله معي فأخذه منّي وقلّبه فأعجبه ثم قال: إن كنت تريد الديوان فإني أُريد القرآن، ولا أرضى بغيره.

قلت: إنك صاحب مكتبة وقد عرضت الكتب فيها للبيع بالثمن، فبعني الديوان بالثمن.

قال: القول كما قلت لك، وأبى أن يبيعني الديوان بالثمن.

فتوقفتُ قليلاً أفكّر في أمري وقد أعجبتُ بالديوان، وأخيراً اعترتني فكرة تقول: أنه بإمكانك الحصول على قرآن غيره يشبه هذا القرآن، ولكن لعلّك لا تحصل على الديوان لو جزت هذا المكان، وبالتالي استسلمتُ للفكرة وقررتُ إجراء هذه المعاوضة الخاطئة والصفقة الخاسرة، فسلّمتُ إليه القرآن الكريم وأخذتُ مكانه الديوان المشؤوم، وبالفعل فقد أثر شؤمه عليّ منذ ذلك الحين، وسلبني توفيق التلاوة من يوم آثرت ذلك على القرآن وحتّى هذا اليوم.

نعم، هذه بعض الآثار السيّئة لاستبدال مادي بغير القرآن، فكيف بالآثار الوخيمة التي تعقّب الإستبدال المعنوي لقوانين القرآن بقوانين غير القرآن الذي أُبتلي به المسلمون اليوم حيث تركوا تعاليم القرآن وأحكامه إلى تعاليم الغرب وقوانينه، فتركوا قانون الحريّات الإسلامية وقانون الأُمة الواحدة وقانون الأخوّة الإسلامية وقانون الشورى وغيرها، ممّا ذكرناها في بعض كتبنا(٨).

٦

المجاهد الذي أصبح ملكاً

يقال: انّ رجلاً من المسلمين كان قد اشترك في إحدى الحروب وأبلى في ساحات الحرب بلاءً حسناً، فلمّا جنّ عليه اللّيل وقد أخذ منه العناء والتعب كلّ مأخذ قصد خيمته ليستريح فيها قليلاً وليستعيد نشاطه وقواه حتّى يعيد الكرّة على العدوّ.

فلمّا دخل الخيمة واستلقى لينام وإذا به يرى قرآناً قد علّق على عمود الخيمة، وهذا العمل كان متعارفاً آنذاك بين المسلمين حيث كانوا يعظّمون القرآن ويتلون آياته، ويعملون بأحكامه، ويهتمّون بتفسيره، ويتبرّكون به، ويطلبون النصر بسببه، والحفظ من البلايا ببركته، فكانوا ينصبونه على عمود الخيمة، وإنّي شاهدتُ ذلك في كربلاء المقدّسة أيّام شهر محرّم حين كانوا ينصبون الخيام في صحني الإمام الحسين وأخيه العباس (عليهما

٨- راجع كتاب (الصياغة الجديدة) و (السبيل إلى إنهاض المسلمين) و (لماذا تأخّر المسلمون) و (إنقاذ المسلمين) ويرها.

السلام) لإقامة العزاء في أيّام عاشوراء، فكانوا ينصبون القرآن على عمودها لضمان سلامتها، ولكن اليوم ومع الأسف قد ذهبت تلك العادات الحسنة بذهاب أصحابها وقد تغيّرت البلاد ومن عليها.

فلمّا رأى ذلك الرجل المجاهد القرآن منصوباً على عمود الخيمة وقد استلقى لينام وليزيح عن نفسه أتعاب يومه وما أصابه من نصب وإعياء، فكّر في نفسه قائلاً: لو كان القائد في الخيمة مكان هذا القرآن، هل كنت أسمح لنفسي بالنوم أمامه رغم كل ما أصابني من جهد وعناء؟

ثم قال: كلاّ، كيف والقرآن أعظم من القائد ومن الملك ومن كلّ أحد؟

ثم قام فجلس، فلمّا جلس فكّر في نفسه ثانية وقال: هب لو كان مكان هذا القرآن، القائد في الخيمة، فهل كان يحسن بي الجلوس أمامه؟ أم كان عليَّ أن أقف رغم كل ما أحسّه من تعب معظماً له.

ثم أجاب في نفسه: بل كنتُ أمتثل بين يديه تعظيماً. فقام ووقف منتصباً بين يدي القرآن.

ثم فكّر في نفسه ثالثة وقال: المثول بين يدي القائد يجب أن يكون باحترام، فكيف بالمثول بين يدي القرآن؟ فوضع يده على صدره ووقف على هذه الحالة بين يدي القرآن حتّى الصباح، وذلك رغم كلّ ما كان يعانيه من تعب ونصب ومسيس الحاجة إلى النوم والاستراحة.

وفي أثناء وقوفه ذلك أخذته غفوة فرأى في المنام هاتفاً يبشّره ويقول له: إنك وذرّيتك ستنال الحكم والملوكيّة ردحاً من الزمن جزاءً لك على احترامك للقرآن الكريم.

وهكذا كان، فقد أصبح هو ملكاً وبقيت الملوكيّة في ذرّيته وعقبه ردحاً من الزمن.

٧

التجلّي في سرداب الغيبة

نقل لنا أحد علماء قم المعمّرين وكان قد رأى والدنا(٩) وعاشره: بأنّ المرحوم والدنا قد تشرّف بلقاء الإمام الحجّة (عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف) مرّتين:

مرّةً: في سرداب الغيبة، والثانية: في هور صالح في النجف الأشرف. ولكن لم ينقل لنا والدنا المرحوم من ذلك شيئاً.

قال المتحدّث المذكور في تفصيل قصّة تشرّف والدنا بلقاء الإمام الحجّة (عجل الله تعالى فرجه) في سرداب الغيبة:

إنّ والدنا (أيّام تشرّفه في سامراء) كان يذهب في الليل لزيارة السرداب المقدّس ويبيت فيه إلى الصباح مشتغلاً بالعبادة وقراءة الأدعية وتلاوة القرآن، وفي أيّام الجمعة كان يبقى لقراءة دعاء الندبة ثمّ ينصرف بعدها إلى منزله، وحيث كانت سامراء خالية من الزوّار في أكثر أوقاتها، ولم يكن هناك من يأتي لزيارة السرداب

٩- المرحوم آية الله العظمى السيد ميرزا مهدي الشيرازي (قدس سره).

المقدّس قال المتحدّث المذكور نقلاً عن والدنا أنه قال له:

كنت مطمئناً بعدم مجيء أحد لزيارة السرداب المقدّس، ولذلك كنتُ عند تشرّفي للزيارة أغلق الباب على نفسي من الخلف لأكون فارغ البال كامل التوجّه إلى اللّه تعالى في دعائي وتوسّلي بوليّه صاحب العصر والزمان (عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف).

وفي صباح يوم جمعة وأنا مشتغل بقراءة دعاء الندبة وقد أغلقتُ الباب على نفسي، وصلتُ في الدعاء إلى هذه الفقرة: (وعرجت بروحه إلى سمائك) وإذا أنا بسيّد جليل وهو جالس إلى جنبي يشير إليّ بيده ويقول: (وعرجت به إلى سمائك) مكان: (وعرجت بروحه إلى سمائك).

فأعدتُ الفقرة كما أشار عليّ السيد الجليل وواصلتُ قراءتي للدعاء وأنا غافل تماماً عن عمق الواقع، وعن الحقيقة التي اتّفقت لي، وعن إشارة السيّد في تبديل الفقرة، وعن شخصيّة السيّد نفسه، حتّى إذا مضيتُ في مواصلة الدعاء، وانقضت مدّة يسيرة، وإذا بي ألتفتُ إلى نفسي متسائلاً: يا ترى من كان هذا السيّد الجليل؟ ومن أين دخل السرداب المقدّس؟ ألستُ قد أغلقتُ الباب على نفسي بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليه؟ ألم أطمئنّ بعدم وجود أحد في السرداب المقدّس؟

وأخذت هذه الأفكار تساورني وتدور في رأسي وتقودني إلى معرفة الواقع وكشف الحقيقة، هذا وقد أخذت مني القشعريرة كل مأخذ وتركت أعضائي ومفاصلي ترتجف بشدّة، وقلبي يدقّ باضطراب وقوّة، وما إن استطعتُ أن أحوّل وجهي إلى المكان الذي كان السيّد الجليل يجلس فيه لأرى محيّاه، لم أرَ أحداً، وكلما فتشتُ عنه لم أجد في السرداب المقدّس لأحد شخصاً، فاطمأننتُ إلى أنه لم يكن إلاّ سيّدي ومولاي صاحب العصر والزمان (أرواحنا له الفداء).

هذا ولا يخفى أن الفقرة في دعاء الندبة منقولة بالوجهين: (وعرجت بروحه)... و(وعرجت به...) .

أمّا وجه: (وعرجت به...) فواضح وعليه اتّفاق الإماميّة، إضافة إلى اعتراف العلم الحديث به وإثبات وقوعه، لأن اللّه تعالى عرج بنبيّه روحاً وجسماً إلى سمائه، إذ المعراج كان معراجاً جسمانيّاً وروحياً وليس معراجاً روحيّاً فقط كما يتّفق للنائم الذي يرى الأحلام في منامه.

وأمّا وجه: (وعرجت بروحه) ـ لو كان النقل صحيحاً ـ فليس معناه: العروج بالروح دون الجسم، بل معناه: العروج بالجسم والروح معاً، لكن تلك الروح الخاصّة التي خصّها اللّه تعالى بنبيّه والمعصومين من أهل بيته (صلوات اللّه عليهم أجمعين) وبتلك الروح القدسيّة استطاع رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) أن يعرج بجسمه إلى السماء وأن يرى ملكوت السماوات والأرض.

هذا إضافة إلى أنّ المتعارف عند أهل اللغة العربية أنهم أحياناً يطلقون كلمة (الروح) ويريدون بها الجسم والروح معاً، كما ويطلقون (الجسم) ويريدون به الجسم والروح معاً أيضاً، فمثلاً لو اتكأ شخص على أخر يقول له: لا تجعل روحك عليّ، أو يقولون: أنا جئت بروحي، أو: ذهبتُ بروحي وهكذا.

٨

مع صاحب المستدرك

نقل والدنا المرحوم عن صاحب (مستدرك الوسائل) الحاج الميرزا حسين النوري (قدس اللّه سرّه) أنه قال:

عندما كنتُ في منطقة (نور) كنتُ أذهب أحياناً إلى الصحراء وأستفيد من هدوئها وسكونها للتفكر والمطالعة، وفي تلك المنطقة كان الفلاّحون يصنعون حسب عادتهم غرفاً في مزارعهم ليستريحوا فيها أيام الحصاد، وفي غير تلك الأيام كانت الغرف خالية.

فلما كنت أخرج إلى الصحراء كنت آخذ معي بعض اللوازم والحاجيات وأنفرد في إحدى تلك الغرف وأتفرّغ فيها للمطالعة والتأليف، وفي الليل كنت أقفل على نفسي باب الغرفة من الداخل وأجلس تحت ضوء المصباح وأستمرّ في التأليف والتصنيف.

وذات ليلة رأيتُ أن قفل الباب ينفتح من تلقاء نفسه، في البدء تصوّرت أن هبوب الرياح وضغط الهواء أدّى إلى انفتاح الباب ولكن اطمأننت أخيراً بأن الهواء لا يستطيع فتح الباب من الداخل فاستغربتُ كثيراً.

وبينا أنا كذلك وإذا بي أرى شخصين جميلين يرتديان ملابساً بيضاً يدخلان عليّ.

فلمّا دخلا سلّما عليّ وقالا متسائلين: بماذا مشغول أنت أيها الشيخ؟

قلت في جوابهما: أنا مشغول بالتأليف والتصنيف.

فقالا: وماذا كنت تكتبه قبل قليل؟

قلت: كنت مشغولاً بكتابة خطبة الرسول (صلى الله عليه وآله) في يوم الغدير، يوم نصب رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) ـ وبأمر من اللّه تعالى ـ علياً أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمّة الأحد عشر من بنيه (عليهم السلام) أوصياء وخلفاء من بعده، وأكمل اللّه تعالى بهم الدين وأتمّ علينا نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً.

ثم التفتُّ إليهما وسألتهما عن حالهما وسبب مجيئهما ودخولهما عليّ؟

فأجابا: بأنّهما من الجنّ المؤمنين باللّه ورسوله، والمعتقدين بولاية أمير المؤمنين والأئمّة الأحد عشر من بعده (صلوات اللّه عليهم أجمعين)، ثم طلبا منّي أن أقرأ عليهما الخطبة.

فلما قرأتها عليهما أطرقا برأسيهما يستمعان إليها، ثم رفعا رأسيهما وقالا بعد أن نظر أحدهما إلى الآخر: أحسنت أيها الشيخ، لقد ذكّرتنا بيوم الغدير وما جرى فيه، ونزيدك علماً بأنّا كنّا قد حضرنا غدير خم يوم ألقى النبي (صلى الله عليه وآله) هذه الخطبة على المسلمين، وسمعناها منه كاملة.

ثم إنهما أخذا يقرءان الخطبة على ما سمعاه، فكان في ما قرءاه مع ما كتبه الشيخ بعض الاختلاف اليسير.

ثمّ واصل والدنا المرحوم حديثه قائلاً: بأنّ الحاج النوري (قدس سره) لمّا سمع الخطبة منهما ورأى الاختلاف اليسير في قراءتهما عمّا كتبه، أشار إلى ذلك اليسير في هامش الكتاب تحت عنوان (نسخة بدل).

نعم، الجنّ خلق من خلق اللّه تعالى وقد أنزل تعالى في كتابه الكريم سورة باسم (الجنّ) وهم خلق كالإنسان فيهم المؤمن وفيهم غير ذلك، لكنهم يمتازون بطول العمر، وبلطافة الجوهر، وبقدرتهم على التشكّل بأشكال مختلفة يظهرون بها لبعض الناس، وغير ذلك ممّا هو مذكور في شأنهم.

٩

في طاعة المؤمن

كان المرحوم السيّد محمّد الصدر (قدس سره) من العلماء الأبرار، المهذّبين الأخيار، وكان يصلّي في المسجد الجامع بمدينة كربلاء المقدّسة الذي يسمّى بمسجد العطّارين والتجّار.

نقل أنه كان يحضر أيام دراسته مجلس درس للعالم الجليل الحاج ميرزا حسين الحاج ميرزا خليل في النجف الأشرف، وذات يوم جاء شخص مقبلاً على الأستاذ بعد أن أكمل سماحته درسه وقال له: إن الجنّ يؤذونه ويقذفون الحجارة على منزله واستنجد بسماحة الميرزا وطلب منه أن ينقذه من هذه المشكلة.

فقال سماحة الميرزا له: لا عليك، اذهب واصعد إلى سطح دارك وقف أمام القبلة وقل: أيّها الجنّ، إن الحاج الميرزا حسين بن الحاج ميرزا خليل يقول لكم: لا تقذفوا الحجارة في بيتي وامنعوا عنّي الذين يفعلون ذلك منكم.

فذهب الرجل وعاد بعد أيّام ليشكر سماحة الميرزا مخبراً إيّاه: أنّ الجنّ قد امتنعوا عن أذاه، وتوقفوا عن قذف داره بالحجارة.

يقول المرحوم السيّد الصدر: تعجّبنا من ذلك كثيراً، ولذلك لما ذهب الرجل أقبلنا على أستاذنا وقلنا له متسائلين: وهل الجنّ يا سماحة الأستاذ مسخرة لكم ومطيعة لأوامركم؟

أجاب الأستاذ قائلاً: لا.

فازداد تعجّبنا وقلنا: إذن كيف أثّر ـ يا سماحة الأستاذ ـ كلامكم فيهم؟

قال: إنّ لذلك قصّة طريفة.

فسألناه أن يقصّها علينا، فلبّى طلبنا وقال:

نعم، كنا نتشرّف في بعض ليالي الأربعاء بالذهاب إلى مسجد السهلة، وكان في المسجد سرداب عميق ذو درجات كثيرة ينتهي آخره إلى بئر، وكنتُ إذا أردتُ الانفراد بمناجاة اللّه تعالى، والإنعزال عن ضوضاء الناس، أذهب إلى ذلك السرداب للصلاة والعبادة، وكنتُ أغلق الباب على نفسي من الداخل وأبيت إلى الصبح مشتغلاً بالصلاة، وفي إحدى الليالي وقد كنتُ في ذلك المكان وأنا مشتغل بالصلاة وإذا بي أحسّ بشخص يجلس إلى جانبي، هذا مع أني كنتُ متيقّناً من إغلاق الباب، فأوجستُ في نفسي خيفة وحاولت التخفيف والتسليم، فلمّا فرغت من الصلاة أقبلتُ عليه وقلت له متسائلاً: من أنت؟

قال: أنا مؤمن معتقد، من مؤمني الجنّ ومعتقديهم.

قلت: وما هي عقيدتك؟

قال: كعقيدتكم باللّه والنبي وإمامة الأئمة المعصومين من أهل بيت النبي (صلوات اللّه عليهم أجمعين).

قلت: وهل أنتم تقلّدون في أحكام دينكم؟

قال: نعم، وأنا من مقلّديكم.

قلت: عجيب! إنك تقلّدني في أحكام دينك ومسائلك الشرعية؟

قال: نعم.

قلت: وماذا تريد الآن؟

قال: جئت لأخبركم بأني رهن إشارتكم ومستعدّ للخدمة لكم.

قلت: شكراً، فإني رجل خفيف المؤونة ولا حاجة لي.

قال: إني أعرض ذلك عليكم بكل إخلاص وأرى ذلك فخراً لي.

قلت: أشكرك على شعورك الطيّب وإخلاصك الكبير.

ثم أخذ يصرّ عليّ بأن أقبل منه ما طرحه عليّ وأخذتُ أصرّ على موقفي الرافض لذلك، حتى إذا أيس من إجابتي له ورأى أني لا أطلب منه شيئاً، قال: إنّ هناك من فسقة الجنّ وأشرارهم من يؤذون الإنس ويقذفون بيوتهم بالحجارة، فإذا اشتكى إليكم أحد من ذلك، فأمروه أن يرقى سطح منزله الذي يقذف فيه بالحجارة ثم ليتّجه إلى القبلة ولينادِ بأعلى صوته: أيّها الجنّ إن الحاج الميرزا حسين بن الحاج الميرزا خليل يقول لكم: لا تقذفوا الحجارة في بيتي وامنعوا عنّي الذين يفعلون ذلك منكم. فإنا نمنعه.

قال ذلك ثم ودّعني وانصرف، وبعد ذلك اليوم وحتّى الآن كلّما جاء إليّ أحد من المؤمنين يشكو من أذى الجنّ وقذفهم داره بالحجارة علّمته ذلك، فينفعه ذلك وينجو من أذاهم والحمد للّه ربّ العالمين.

وهكذا كان علماؤنا الأبرار حيث لا يفكرون في أنفسهم ولا يطلبون الراحة لذواتهم، وإنما يفكّرون دائماً في إنقاذ الآخرين والترفيه عنهم، وإسباغ الراحة عليهم وإسعادهم.

١٠

الدنيا سجن المؤمن

كان المرحوم الحاج الشيخ مرتضى الطالقاني (قدس سره) أحد علماء النجف الأشرف ومن الأساتذة البارعين في الأخلاق، وقد تربى على يديه جماعة من كبار العلماء، وإني كنت قد التقيتُ به قبل خمسين عاماً تقريباً، وذلك عندما كانت له غرفة في مدرسة السيّد فرأيته ممتازاً، وكانت إحدى ميّزاته أنه كان يعيش ببساطة بالغة، وكان في عين بساطته نزيهاً جداً.

وقد نقل عنه أنه لما حضرته الوفاة وصار في حالة الاحتضار وقد احتفّ به جماعة من العلماء، أُغمي عليه ودخل في غيبوبة الموت، ثم لمّا أفاق التفت إلى من حضر عنده وقد عرق جبينه عرق الموت وقال: لو كان المؤمن يعلم بما يخصّه الله سبحانه وتعالى في الآخرة، لما فضّل الدنيا على الآخرة حتى لدقيقة واحدة، وإن أعطي كل الدنيا وما فيها، ثم تشهّد الشهادات الثلاث ولفظ أنفاسه الأخيرة.

وإلى هذا وأمثاله أشار ما ورد في الخبر: أن الله تعالى يعطي الإنسان المؤمن إذا انتقل إلى الآخرة (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)(١٠).

كيف لا يكون كذلك ولله تعالى خزائن السماوات والأرض وهو الكريم والواسع الذي لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً، وهو خير منزول به، وقد نزل به عبده المؤمن الذي آثر طاعته تعالى على هواه، وزمّ نفسه بزمام الإيمان بالله واليوم الآخر والكتاب والنبيّين والأئمّة المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين)؟

١٠- بحار الأنوار: ج ٨ ص ٦١ ح ٨٢ وفيه: على بال بشر.

١١

من أسرار تحريم التنباك

ينقل أن الاستعمار البريطاني عندما استطاع الحصول على امتياز التنباك في إيران حاول من خلال ذلك النفوذ في صفوف الشعب الإيراني المسلم لترويج نواياه الاستعمارية في أوساطه، ولم يقف أمام هذا المدّ الاستعماري سوى حماة الإسلام الواقعيّين وهم فقهاء الشيعة الأجلاّء، حيث كان على رأسهم يومئذ المرجع الأكبر، سماحة آية الله العظمى السيد الميرزا محمد حسن الشيرازي (قدس سره) فاجتمع ببقيّة العلماء والمراجع واستشارهم في كيفيّة المواجهة.

فلمّا طال اجتماعهم ولم يصدر منهم موقف حاسم تجاه الأحداث الراهنة في إيران، وكان البعض يستبطئ ذلك منهم ويرى لزوم السرعة في الإقدام القاطع لأجل إنقاذ الشعب الإيراني المسلم.

أقبل إليه تلميذه آية الله السيد محمد الفشاركي وكلّمه في القضية ـ معتذراً له تخطيه حدود آداب التلميذ والأستاذ معه في كلامه ـ وذلك لأن القضية بنظره مهمّة تتطلّب منه تلك الصراحة معه.

فلمّا أذن له سماحته في الكلام بما يشاء، قال:

يا سماحة الأستاذ لماذا لا تعلنونها بوجه الاستعمار صريحةً واضحة؟ وأنه ماذا يقعدكم عن الإفتاء بتحريم التنباك ومنع كل ما يرتبط به من استعمال وبيع وشراء وتصرّف؟ أتخشون من ذلك على نفسكم ومكانتكم؟ أو لا يهمّكم ما يهمّ الشعب المسلم في دينه وعقيدته، وأمنه واستقلاله، أليس لكم في جدّكم الحسين (عليه السلام) أسوة حسنة؟ ألم يضحّ (عليه السلام) بنفسه وبكلّ ما يملكه لأجل إنقاذ الأمة. فما لكم تتلكّؤون عن ذلك، أفدمكم ـ والعياذ بالله ـ أعزّ من دم ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد بذله في هذا الطريق؟!

فألقى سماحته نظرة ملؤها الحنان والعطف إلى تلميذه الذي اندفع إلى كل ذلك من دافع الإيمان والتقوى ومن منطلق القرآن والإسلام وقال: إني ومنذ أيّام كنت أفكّر في تحريم التنباك الذي استقرّ عليه رأي أغلب الفقهاء ـ المجتمعين في شورى المراجع ـ ولكن كنت أفكر في عواقب ذلك من جميع النواحي حتى توصّلت إلى إصدار فتوى التحريم. فذهبتُ اليوم إلى سرداب الغيبة ـ وكان سماحته يقطن سامراء ـ لأستجيز مولاي الإمام الحجة (أرواحنا فداه) وقد أجازني (روحي فداه) واليوم قبل أن تأتي إليّ كتبتُ الفتوى بأمره (عليه السلام).

ثم أخرج سماحته الفتوى وسلّمها لتلميذه ليراها بنفسه ويطمئن إليها، فلمّا رآها التلميذ تشكّر من أستاذه واعتذر منه، ثم استأذنه في الانصراف، فانصرف مودّعاً.

ثم إن سماحته أعلن الفتوى وجهر بها وكانت بهذا المعنى:

(اليوم يُعدّ استعمال التتن والتنباك بأيّ نحو كان في حكم محاربة الإمام صاحب الزمان سلام الله عليه).

ثم أرسلت الفتوى إلى إيران وفي أيام قلائل وزّعت على جميع الأوساط الشعبية وفي كل أنحاء إيران، فلما سمع الشعب الإيراني المسلم بفتوى مرجعهم انقادوا له بالسمع والطاعة وتركوا كل أنواع استعمال التتن والتنباك، حتى أنهم أحرقوا محاصيلهم الزراعية منها، وأفنوا مذخوراتهم المودعة في المخازن لها، وأتلفوا ما كان منها في أيديهم ولم يبيعوها للاستعمار، مما اضطرّ بريطانيا على أثرها فسخ المعاهدة والانسحاب من

إيران.

ومن طريف ما يذكر في هذه القصّة: أنه بعد هزيمة بريطانيا من إيران، جاء بعض العلماء برفقة بعض الناس عند الميرزا الشيرازي ليباركوا له الانتصار العظيم.

فلمّا سمع الميرزا الشيرازي كلامهم أراد أن يُلفتهم إلى نقطة مهمّة جداً، حتى يكونوا من الاستعمار على حذر ولا يتيهوا في غفلة زهو الانتصار وغروره، ولذلك هاج بالبكاء!

فلمّا سئل عن سبب ذلك، قال: إني أخشى عليكم من المستقبل، وذلك لأنّ العدوّ الغاشم عرف أن المراجع ورجال الدين هم مصدر الخطر له، واكتشف أنهم وحدهم الذين يهدّدونه ويهدّدون مصالحه، وهو من الآن سيبدأ في تخطيط ماكر لمحاربتهم وعزلهم وفصل الناس عنهم.

نعم، إنّ كلامه (قدس سره) هذا لا زال يدوّي من طيّات التاريخ، ويقرع آذان الأجيال، وينبه ضمائر الأحرار والواعين، فعلينا بالحذر من مكائد الاستعمار، والالتفاف حول العلماء الأبرار الذين هم امتداد لأهل البيت (عليهم السلام)،والذين يواصلون طريقهم، ويسيرون على هداهم، ويروّجون أهدافهم.

١٢

مع هدية الإمام الكاظم (عليه السلام)

ينقل عن المرحوم السيد عبد الله شبّر (قدس سره) الذي عاش قبل مائتي عام تقريباً، وله مؤلفات كثيرة ومفيدة، أنه قبل بدئه بالتأليف وعلى أثر إخلاصه ومعنوياته، وطيب نفسه وتوسّله بأهل البيت (عليهم السلام) وخاصّة بالإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) رأى ذات ليلة الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) في المنام وقد أعطاه قلماً وأمره بالتأليف.

فلما استيقظ من نومه رأى ذلك القلم الذي أعطاه الإمام (عليه السلام) في النوم موجوداً في يده، فلبّى أمر الإمام (عليه السلام) واشتغل بالتأليف.

وحيث كان مرعياً بنظر الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) استطاع أن يؤلّف بذلك القلم مؤلفات كثيرة من ذلك الوقت إلى آخر حياته، ويخلّفها صدقة جارية من بعده، وهذه من كراماته العجيبة (رحمة الله عليه).

وقيل: إنه حتى في اللحظات الأخيرة من حياته كان مشغولاً بالتأليف، حيث وجدوه ميتاً، وفي قلمه آثار من رطوبة الحبر.

١٣

الرسول (صلى الله عليه وآله) يكرم شاعره

ينقل أن أحد الشعراء المعروفين أنشأ قصيدة في حقّ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) يمدحه وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) فيها، وحيث إن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) يكافئون بالإحسان في الدنيا والآخرة كل من قدّم لهم خدمة مهما كانت تلك الخدمة صغيرة ومتواضعة، ولا ينسونه ولا يجهلون حقّه أبداً، لم تمضِ مدّة على ذلك الشاعر المعروف، حتى أنه رأى ذات ليلة وهو في المنام رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلمّا وقع عليه نظره قال له: أنت الذي مدحتنا بقصيدتك؟

أجاب ذلك الشاعر: نعم يا رسول الله، ثم أضاف قائلاً: وما ذلك من حقّكم إلا كقطرة من بحر لجي، بل هو كالعدم.

عندها التفت إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال له: أحسنت وأجدت على قصيدتك.

ثم أخذ (صلى الله عليه وآله) بردته التي كانت على عاتقه وأهداها إليه وساماً له، وجزاءً لخدمته.

فرح ذلك الشاعر فرحاً كبيراً، وسرّ سروراً عظيماً، حيث رأى النبي (صلى الله عليه وآله) يقبل منه قصيدته ويهدي له بردته، وازداد فرحه وتضاعف سروره عندما استيقظ من نومه وهو يرى البردة التي أهداها إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المنام موجودة عنده.

وهذه معجزة للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) وكرامة لذلك الشاعر المخلص في ولائه وحبّه للرسول وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين)، ومن أجل ذلك اشتهرت قصيدة هذا الشاعر فيما بعد بـ(قصيدة البردة).

١٤

من بركات الدعاء والتوسل

نقل المرحوم السيد علي شبّر (قدس سره) أنه كان في النجف الأشرف بيتاً مشهوراً بالشؤم، حيث إنه لم يسكنه أحد إلا أصيب فيه ببلاء: من فقر، ومرض، وموت عزيز، وما أشبه ذلك.

ولهذا السبب كان ثمن إيجار هذا البيت رخيصاً جداً بحيث يرغب فيه كل من لا سعة له من المال، ولكن ما أن يسكنه مدّة إلا ويندم على سكناه فيه ويسرع في تركه والانتقال عنه.

يقول السيد: وحيث كنّا ممّن لا سعة له من المال فكّرنا من باب الاضطرار في استيجار هذا البيت وعلاج شؤمه بواسطة الدعاء والتوسّل بالله والرسول وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) وتلاوة آيات القرآن الحكيم آناء الليل وأطراف النهار، والتعويذات المجرّبة في هذا المجال.

ثم استأجرنا ذلك البيت وفعلنا كل ذلك في أول يوم نزلنا فيه، وما أن جنّ علينا اللّيل وأخذنا مضاجعنا ورقدنا فيه إلا ورأيتُ في المنام سيّداً جليلاً تعلوه شيبة ووقار، وتكسوه هيبة وجلالة، وهو يُقبل إليّ، ويتجه نحوي،

حتى إذا اقترب مني قال معاتباً: إني لم أكن أتوقع منكم عملكم هذا!

فقلت له متعجّباً: وأيّ عمل صدر منّي لا تتوقعونه؟

قال: إنكم تتخلّون على قبري.

قلت: معاذ الله أن نفعل ذلك.

قال: نعم إنكم تفعلون ذلك.

قلت: وكيف؟ وما هو دليلكم عليه؟

قال: إن قبري الذي دُفنت فيه قد اندثر، وذهبت معالمه، فاتخذتم بيت الخلاء في بيتكم وبنيتموه على موضع قبري.

فانتبهتُ على أثر كلامه ذلك فزعاً مرعوباً، وانتظرتُ مجيء الصباح كي أستطيع إصلاح الأمر، وبالفعل لما أصبح الصباح جئتُ بأحد البنائين وطلبتُ منه هدم بيت الخلاء وبناءه في مكان آخر من البيت بعيد عن هذا المكان

فاشتغل البنّاء بالعمل، فلمّا هدم الموضع وإذا بقبر قد ظهر، وعليه اسم شخص فلمّا رفعنا حجر القبر وجدنا تحته جسداً طرياً سالماً لم يتغيّر أبداً، ولم يتغيّر حتى كفنه الذي كفّن فيه، وإن الناظر إليه ليراه كأنّه قد مات الآن.

فبنينا القبر من جديد وأظهرنا معالمه، وأعدنا إليه حرمته وكرامته، ثم بقينا في البيت بعد ذلك مدّة طويلة من الزمن دون أية مشكلة، وذهب والحمد لله ببركة الدعاء والتوسّل شؤم البيت نهائياً.

وهكذا تبيّن لي سبب شؤم البيت وحصول تلك المصائب على ساكنيها من قبل، وقد شاء الله سبحانه أن يدفع ذلك البلاء عنّا بسبب تلك التوسّلات والأدعية.

ثم إن السيد المذكور قال في نهاية قصّته: وبعد ذلك التقيتُ بالعلاّمة النحرير الشيخ آقا بزرك الطهراني صاحب (الذريعة) وسألته عن هذا الاسم الذي كان مكتوباً على ذلك القبر؟

فأخبرني أن هذا الشخص كان من علماء الشيعة وأحد مصنّفيهم، ونقل لي بعض ميّزاته ومواصفاته.

١٥

ذكر الله وآثاره

جاءني يوماً ـ وأنا في الكويت ـ شابّ وسيم المنظر من أهل السنة، وكان على وجهه آثار المضاضة والألم، فاستأذنني في بيان قصّته.

فلمّا أذنت له قال: إنني موظّف في أحد فنادق الكويت ومنذ زمن غير بعيد أصبت ببلاء أليم أثّر على نومي وأكلي وكلّ شؤوني حتى أخذ مني مأخذاً عظيماً، وذلك بسبب فتاة من الجنّ تأتيني في نومي وتؤلمني حتى الصباح لكما وضرباً، وعضّاً وقرصاً، فتسلبني نومي.

ثم كشف عن رجليه ويديه وأراني ما عليها من آثار ذلك العضّ والقرص، واللكم والضرب.

ثم أضاف قائلاً: إني راجعتُ كل الأطبّاء والدكاترة في هذا الشأن، فلم يكن جوابهم إلا قولهم: إنك متوهّم.

فلما يئستُ منهم راجعتُ الفوّالين والرمّالين حتى يئستُ منهم أيضاً، ثم فكّرتُ في مراجعة رجال الدين وقلت في نفسي: إنه إن يكن شيء ينفع فهو عندهم.

فأمرته أن يحمل معه بعض التعويذات والأدعية لتكون معه دوماً، وأمرته أن يستغفر الله كثيراً، وأن يلهج بذكر لا إله إلا الله، وأن يقرأ في كل يوم القلاقل الأربعة وهي المعوّذتان والتوحيد والكافرون، وبعض الآيات القرآنية الأخرى، مثل قوله تعالى: (يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ)(١١).

ولمّا أراد أن ينصرف قلت له: أخبرني عن نتيجة أمرك.

قال: حتماً، ثم انصرف.

وبعد شهر تقريباً من تلك القصّة، جاء الشابّ ذاته مستبشراً فرحاً على ثغره بسمة الانتصار، وعلى وجهه آثار الصحّة والسلامة، فأقبل عليّ وحيّاني وشكرني كثيراً لنجاته وخلاصه من ذلك البلاء العظيم، ثم أراد تسليمي مبلغاً من المال فرفضت ذلك وقلت له: نحن لا نعمل شيئاً مقابل المال.

قال: إني منذ تلك الليلة التي راجعتكم في صبيحتها وأعطيتموني تلك التعليمات النافعة، أخذتُ مضجعي بكلّ راحة وفراغ بال، فإنّه لم يزاحمني بعد ذلك أحد والحمد لله.

نعم، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: (ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)(١٢)، ويقول تعالى أيضاً: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ، وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ)(١٣).

١٦

من شأن الدنيا

على ما نقل ظاهراً كان في وسط طهران ـ وذلك قبل ما يقرب من مائة عام ـ مقبرة يدفن فيها الموتى، وكانت هذه المقبرة حسب ما يقال مخيفة في الليل، بحيث لا يجرأ أحد على اجتيازها ليلاً، ولهذا السبب كان الناس لا يمرّون بها أثناء الليل.

هذا بالإضافة إلى القصص التي كانت تتناقل عبر الأفواه بشأن الأرواح الشريرة التي كانت تطوف في هذه المقبرة ليلاً وتزيدها وحشة ورهبة ممّا كان يُزيد الناس تجنّباً وبُعداً.

وكان أحد رجال الدين يسكن في بيت استئجار في طهران وقد انقضت مدّة إجارته، وطلب منه المالك تخلية البيت.

وحاول رجل الدين المذكور في الحصول على بيت استئجار آخر وسعى في الطلب، لكن دون جدوى فاضطرّ في الليلة الأخيرة من المهلة التي استمهلها من المالك أن يخرج من البيت يائساً يبحث عن مكان يلجأ إليه

١١ـ الرحمن: ٣٥.

١٢ـ الرعد: ٢٨.

١٣ـ الأعراف: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

ويُسكن فيه عائلته.

فوقع طريقه على تلك المقبرة الموحشة، وبينما هو يسير بين القبور وإذا بشابّ جميل وسيم عليه ثياب تفوح منها رائحة طيّبة يمتثل بين يديه ليحيّيه ويقول له متسائلاً ومسلّياً في نفس الوقت: سيّدي مالي أراك مغتمّاً غارقاً في همومك؟ هوّن عليك، فإن الدنيا لا تستدعي ذلك، انظر إلى هذه المقبرة التي أنت فيها، فإنها على ما أعلم كانت يوماً منطقة آهلة بالسكّان، ثم تحوّلت تدريجياً إلى مقبرة، ثم أصبحت بعد ذلك مسكونة شيئاً فشيئاً، ثم تحوّلت مرّة أخرى إلى مقبرة، وهكذا إلى أن عادت ـ بعد ستّ وعشرين مرّة من عمرانها وازدهارها بالسكّان ـ مقبرة كما تراها الآن، فهذا شأن الدنيا فلا يهمّك شيء من مصاعبها، فإن الدنيا تمرّ والله كريم، ثم غاب ذلك الشابّ عن نظره.

يقول رجل الدين المذكور: لما غاب ذلك الشاب عن عيني، رجعتُ إلى نفسي والتفتُ وإذا بي وحيداً في هذه المقبرة الموحشة، ففكرتُ أنه من كان هذا الشاب الذي كلّمني، وبعث فيّ روح الأمل، وسلاّني عن مشكلتي؟

هل كان ملكاً من ملائكة الله تعالى، أو روحاً من الأرواح الطيّبة؟

لست أدري، إلا أن المهم إنه أعاد روح الأمل إليّ، وأنقذني من همومي ومشكلتي.

ثم إنه واصل طريقه حتى اجتاز تلك المقبرة الموحشة، وفي الطرف الثاني حصل على ما كان يبحث عنه من بيت للسكن وانتقل إليه.

١٧

حذيفة الصحابيّ الوفي

إبّان الحكم الملكي في العراق خضع قبر حذيفة الذي كان من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) للتخريب بسبب جواره لنهر دجلة، وبما أنه كان مزاراً للناس اضطرّ النظام أن ينقل القبر إلى جوار قبر سلمان الفارسي (رضي الله عنه) عبر الوسائل الحديثة مثل رافعة الأثقال وما أشبه.

ولكن القبر حين نُقل من مكانه تهدّم فظهرت جثّة حذيفة وهي طريّة وغضّة، وكذلك كفنه غضّاً جديداً رغم مرور ما يقرب من أربعة عشر قرناً على دفنه.

فلمّا نظروا إليه ليشاهدوا ملامحه فإذا به أسمر اللون شديد السمرة، في سمات أهل الحجاز وشمائلهم، نحيف البدن هزيله، يحيط بوجهه الأسمر لحية بيضاء كأنّها هالة قمر، لم يأكل التراب شيئاً من بدنه ولا من كفنه، ولم يغيّر شيئاً من محاسنه وسماته، وبذلك تجلّت معجزة الله تبارك وتعالى للناس، حيث رأوا في جثمان حذيفة خرقاً لقانون الطبيعة وتحدّياً لموازين التراب والأرض اللذان يأكلان كل جسم ويبليانه، ولا يدعان منه شيئاً.

فلما وصل النبأ إلى الناس وجماعة من العلماء انهال الجميع على المكان لرؤية المنظر ثم كفنوه بكفن ثان لينالوا به ثواباً وشرفاً، ثم شيّعوه في موكب ضخم ودفنوه في جوار سلمان الفارسي (رضي الله عنه)، وأصبح قبر هذا الصحابي الوفي وما زال إلى اليوم مزاراً للمؤمنين (رضوان الله تعالى عليه).

١٨

من أنباء البرزخ

كان المرحوم المحدّث القمي الشيخ عباس صاحب كتاب (مفاتيح الجنان) من خيار علماء الشيعة وزهّادهم، وكان قد نذر حياته كلّها في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين، وما من بيت من بيوت الشيعة اليوم إلا وفيه أثر من آثار مؤلفات الشيخ القمي (رحمة الله عليه) عادة.

توفّي هذا الرجل العظيم في النجف الأشرف ودفن إلى جوار أمير المؤمنين (سلام الله عليه). وبما أن عالم البرزخ عالم له أهميّة كبيرة وخطر عظيم بالنسبة إلى الإنسان الذي ينتقل من هذه الدنيا الفانية إليه، فهو لا يستغني عن الاستئناس بما يبعث إليه ذووه من الخيرات والمبرّات. والقصة التالية ـ التي نقلت عن نجل الشيخ وهو فضيلة الشيخ ميرزا علي محدّث زاده الذي توفي مؤخّراً ـ تؤيّد ذلك، إنه قال:

لما توفّي والدنا المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي، وفرغنا من دفنه ومن مراسم التعزية والفاتحة إلى روحه فكّرنا في عمل الخيرات له، وحيث كان والدنا يعيش حياة زهيدة، لم يترك من بعده من أموال الدنيا قليلاً ولا كثيراً ـ وهكذا يكون دأب الصلحاء والعلماء والربانيّين ـ لذلك اتّفقتُ أنا وأخي على أن نسبل الماء ونسقي به زوّار الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في ليالي الجمعة، وذلك بأن نملأ كوزاً لنا في صباح يوم الخميس بالماء ونجعله في مكان بارد حتى يبرد الماء، وفي المساء نأتي به بارداً ونسقيه الزائرين العطاشا بثواب والدنا (رحمه الله).

وقررنا تقسيم هذا العمل بيننا، بأن أعمله مرّة أنا في ليلة الجمعة الأولى مثلاً ويعمله هو في ليلة الجمعة الثانية وهكذا، وفي ليلة من ليالي الجمعة التي كانت القسمة فيها لأخي، وكان عليه أن يسقي الزائرين حسب القرار، رأيتُ في المنام والدنا المرحوم وهو يتلظّى عطشاً، وكان من شدّة عطشه يستغيث ويقول: العطش العطش، فتذكّرتُ وأنا في النوم أن والدنا في عالم البرزخ وأنا نسقي زوّار الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ماءً بثوابه، ولذلك قلت له: يا والدي، ألم يصلك الماء الذي نسبله على الزائرين بثوابك؟

قال: نعم، ولكن هذه الليلة لا.

استيقظتُ من النوم على أثر فزعي من مشهد والدي وشدّة عطشه وأسرعتُ إلى مأوى أخي فأيقظته من نومه وقصصتُ عليه رؤياي التي رأيتها عن والدنا وسألته عن قيامه بما تقرّر بيننا من تسبيل الماء.

فأجاب متعجّباً وهو يقول: الله أكبر، نعم لقد صدق والدنا حيث قال، ولكن هذه الليلة لا فإني نسيتُ تسبيل الماء في هذه الليلة، ثم قام وأسرع إلى الكوز وأخذه واتجّه به إلى صحن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وأخذ يسقي زوّار الإمام (عليه السلام) من مائه حتى نفذ الماء.

نعم، إنّ هذه القصّة وما شابهها دليل على شدّة ما يحتاجه الإنسان من الخيرات والمبرّات في عالم البرزخ مهما كان ذلك الإنسان صالحاً، كما وتدلّ أيضاً على لزوم عمل الخيرات والمبرّات المادية أيضاً مضافاً إلى عمل الخيرات والمبّرات المعنوية، يعني أن الإنسان هناك محتاج إلى من يبعث له ثواب قراءة القرآن والزيارة والبكاء على الإمام الحسين (عليه السلام) وثواب إقامة المجالس والشعائر الحسينية، وإطعام الجائعين، وسقي الظامئين، وتكفّل اليتامى والمساكين، وسدّ عوز المعوزين، وسدّ الفراغ الفكري وخاصّة لدى الشباب المسلم

بنشر الكتب الثقافية والأخلاقية التي رويت عن الرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) الذين جعلهم الله تعالى أسوة لنا وقدوة في سيرتهم وأخلاقهم وتعاملهم مع الحياة، فقهاً وسياسة واجتماعاً واقتصاداً وما إلى ذلك وإهداء ثوابه إلى أمواتنا، فإنهم بأمسّ الحاجة إليها.

حتى إنه نقل عن ملك مات، فرآه ذووه في المنام وهو يلتمسهم ويستجديهم فعل الخيرات والمبرّات ويقول لهم: أرأيتم كلبكم الذي يحرس لكم بيتكم كم هو بحاجة إلى ما تقدّمون له من عظام؟ فإني أشدّ احتياجاً منه إلى ما تبعثونه إليّ، وذلك لأن الكلب إذا حُرم منكم، استطاع أن يسدّ حاجته من غيركم، ولكني لو حرمتُ من خيراتكم ومبرّاتكم لي، فإني لا أستطيع تحصيلها من غيركم. إذن فما أحوجني إليكم وإلى ما تبعثون إليّ من صدقاتكم وخيراتكم ومبرّاتكم؟

١٩

دعوة مستجابة

لأتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام) تاريخ مشرق، فقد ثبت على طول التاريخ إنهم متى ما وقع الحكم بيدهم عدلوا، ومتى ما قدروا عفوا، ومتى ما ملكوا سجحوا، بينما التاريخ قد أثبت معاملة العكس للآخرين.

فهذا أحد ملوك الأفغان ويدعى محمود شاه أفغاني، من حقده على الشيعة وشدّة عدائه لهم قد جَنّد قبل قرن تقريباً جيشاً جرّاراً باتّجاه إيران وخلّف الدماء والدمار في أرجائها ومن أقبح جرائمه هو أنه أمر جنوده بانتهاك الحرمات واقتحام البيوت وإرعاب الآمنين، كما وأمرهم أن يأتوا إليه بكل بنت جميلة وفتاة وسيمة يجدونها في البيوت.

وذات مرّة وجد جلاوزته بنتاً جميلة من العلويّات فهمّوا بأخذها ولكن البنت أبت وامتنعت عليهم، فلما يئست من مقاومتها لهم استعطفتهم بطريق البكاء والتوسّل، فأجهشت هي وأبوها العجوز بالبكاء والنحيب، وتوسّلا بالجلاوزة بأن يخلّوا سبيلها، لكن دون جدوى، لأن الجلاوزة لا يفكّرون إلا في إرضاء الطاغية والنزول عند رغباته الدنيئة، ونزواته الوضيعة، مهما كلّفهم الأمر وأعقبه من ويلات ودمار، وبذلك يجعلون من أنفسهم جسراً لوصول الطاغية إلى مآربه وشهواته، ولم يجلبوا لأنفسهم سوى اللعنة والعار، والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، بعد أن يسجلوا أنفسهم مع من باع آخرته بدنيا غيره، ولذلك على أتباع السلطان وكل من يعيش على مائدته أن يقدّروا أنفسهم ولا ينزلوا بها إلى حضيض الذلّ والعار، وهوان جهنّم ودركاتها.

وكيف كان، فإن أولئك الجلاوزة لم يعبأوا ببكاء البنت ولم يحنوا على ضعف أبيها العجوز، بل أخذوا يسحبونها ويقولون: نحن مأمورون، والمأمور معذور، وهذا أيضاً من تحريفات الطواغيت ومن تسويلات النفس والشيطان، فإن المأمور في هكذا أمور ليس كما هو المعروف على الألسنة بأنه (معذور)، بل هو كما في الحديث الشريف: (مأزور) يعني عليه الوزر والعقاب من الله تبارك وتعالى.

نعم جرّ الجلاوزة الفتاة العلويّة أمام عيني أبيها واقتادوها للطاغية، فلم يملك الأب العجوز ما يدفع به عن نفسه وما يستنقذ به ابنته منهم، إلا أن رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنك تعلم حالنا وما نزل بنا، فخلّصني وابنتي من هؤلاء الظالمين، ومن العار والشنار، ثم أرخى عينيه بالبكاء.

ولم ينفك يبكي ويدعو ولم تطل المدّة على هذا الأب الوالد حتى استجاب الله تعالى دعاءه، وفرّج عنه وعن ابنته، فبينما هو كذلك إذ دخلت عليه ابنته العلويّة وهي فرحة مستبشرة.

فقام إليها أبوها العجوز وعيناه تجريان دمعاً من الفرح والسرور، فاعتنقها وهو يبكي ويقول: أأنتِ ابنتي؟!

فتجيبه: نعم، يا أبة أنا ابنتك، وقد فرّج الله عنّي استجابة لدعائك لي.

فقال: وهل لك أن تقصّي عليّ قصّتك؟

قالت: نعم يا أبة، لما أخذني الجلاوزة إلى السلطان الطاغية، ولم أكن وحدي، بل كانت هناك فتيات كثيرات أخذن إلى الطاغية قهراً، فأمر الطاغية أن يجعلونا في إحدى غرف قصره ويهيّئونا له، ونحن نبكي ونتوسّل إلى الله في خلاصنا منه، وإذا بالطاغية يصاب بألم شديد في بطنه يسلبه قراره ويفقده لبّه ونظامه، فعمّ القصر اضطراب شديد، وعلا كل من في القصر قلق وخوف أدّى بالطاغية أن يأمر بإطلاق سراح كل الفتيات والإفراج عنهنّ. فخرجنا فرحين وأتينا بيوتنا سالمين والحمد لله.

وهكذا ظهرت آثار دعوة هذا الأب العجوز، التي كانت عن توجّه خاص وانقطاع صادق إلى الله تعالى، واضحة جليّة.

وفي رواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: إن الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في طاعته فلا تستصغرنّ شيئاً من طاعته، فربما وافق رضاه وأنت لا تعلم، وأخفى سخطه في معصيته فلا تستصغرنّ شيئاً من معصيته، فربما وافق سخطه في معصيته وأنت لا تعلم، وأخفى إجابته في دعوته فلا تستصغرنّ شيئاً من دعائه، فربما وافق إجابته وأنت لا تعلم، وأخفى وليّه في عباده فلا تستصغرنّ عبداً من عبيد الله، فربما يكون وليّه وأنت لا تعلم(١٤).

وهذه الرواية وأمثالها تفرض على الإنسان العاقل ناهيك عن المؤمن بأن يلتزم بهذه الأمور الأربعة: من المواظبة على الدعاء والتوسّل الدائم بالله وبرسوله وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين)، واجتناب كل ذنب ومعصية، واحتساب كلّ حسنة وطاعة، واحترام الآخرين وتوقيرهم وإن كانوا أقلّ منه شأناً ومقاماً.

٢٠

لا تستصغر أحداً

كانت كربلاء المقدّسة ولا تزال تزدحم بالزائرين الكرام الذين يؤمّونها بمناسبة الزيارات الخاصة بالإمام الحسين (عليه السلام)، وفي ليالي الجمعة أيضاً كانت كذلك، وفي ليلة من تلك الليالي حيث كان الزائرون يملأون شوارع كربلاء وأزقّتها كنّا جالسين بالقرب من المخيّم، وكان يحدق بنا جمع من هؤلاء الزوّار الكرام وأكثرهم بزيّ أهل القرى والأرياف الذين يعيشون بعيدين عن الأجواء الدراسية والعلمية، وهم ينصتون إلينا ويسمعون حوارنا، وبينا نحن كذلك إذ وصل البحث إلى هذا السؤال وهو: ما هي تلك الأوزان الأربعة التي يمكن

١٤- الخصال: ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ ح ٣.

أن توزن بها الأشياء من الكيلو الواحد حتى الأربعين كيلو؟

فدخل الجميع في التفكير لحلّ هذا السؤال: وإذا بأحد هؤلاء الزوّار وكان يعلوه مظهر الأميّة والبداوة، وإنه لا يحسن شيئاً من اللغة الفارسية ولا الحساب وقف وقال: هذا السؤال لا يستحقّ التفكير كثيراً، فإن الأوزان الأربعة هي عبارة عن: (١ و ٣ و ٩ و ٢٧).

وكان الجواب صحيحاً، وذلك لأنّا بهذه الأوزان الأربعة نتمكّن أن نزن ما نريده من الكيلو الواحد إلى الأربعين بلا حاجة إلى الوزن، فمن أجل وزن كيلوين - مثلاً - نضع الوزن ذا الثلاثة كيلوات في إحدى كفّتي الميزان، ونضع الوزن ذا الكيلو الواحد في كفّته الأخرى ونزن كيلوين من المتاع، وهكذا حتى وزن أربعين كيلو من المتاع، حيث نجعل الأوزان الأربعة كلها في إحدى كفّتي الميزان.

إذن، فكيف يمكن للإنسان أن يحتقر الناس مع أن بعضهم قد يكون من أولياء الله، أو ذو دعوة مستجابة، أو شخصية علمية، رغم ظاهره العادي؟!

وعليه، فإنّ علينا أن نسيء الظنّ بأنفسنا، وأن نحسن الظنّ بالآخرين، وأن نمارس ذلك من أنفسنا ممارسة عملية ونطبّقه تطبيقاً خارجيّاً، حتى تصبح لدينا ملكة احترام الآخرين وتوقيرهم، وإضمار حبّهم وإرادة الخير لهم قوية ومنيعة.

٢١

المصاعب تصنع الرجال

نقل المرحوم الشيخ محمد حسن الهرسيني - الذي كان من أصدقاء والدنا (قدس سره) وكان من الأجلاء ومن العلماء الأبرار - قائلاً:

كانت منطقتنا (هرسين)(١٥) بحاجة إلى التبليغ والإرشاد، فقد كان المنحرفون يروّجون أفكارهم المنحرفة في أوساط مجتمعنا وليس هناك من يمنعهم عن ذلك، ولا من يروجّ الأفكار الصحيحة في المقابل، فقررت المجيء إلى النجف الأشرف لتلقّي الدروس الدينية والتفقّه في الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام والعودة إلى البلدة بغية التبليغ.

وكان والدي يبعث لي مبلغاً متواضعاً إلى النجف الأشرف أتقوّت به، وأصرفه في إدارة أموري، وبعد فترة من الزمن انقطع عنّي ما كان يبعثه إليّ والدي من المساعدة، ونفذ ما كان عندي أيضاً من المال ولم يبق لي شيء أسدّ به رمقي حتى أخذ الجوع منّي مأخذاً عظيماً.

فقمت يائساً من كل شيء وتوضّأت للزيارة ثم ذهبتُ إلى حرم أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وقلت له: سيّدي أنت تعلم أني لم أقصد الدنيا بمجيئي إلى النجف الأشرف، وإنما جئتُ للتشرّف بالزيارة ولطلب العلم للخدمة في سبيل الله والتبليغ لمذهب أهل البيت (عليهم السلام)، والآن ومنذ فترة أصبحت في ضيق من العيش،

١٥- هرسين منطقة تقع في أطراف مدينة كرمان شاه في إيران.

وقلّة من الرزق، وبقيت أطوي جائعاً ولم أتحمّل الجوع أكثر من هذا، ولا أريد أن أسأل من أحد شيئاً حفاظاً على ماء وجهي وإني كما تعلم يا سيّدي متقشّف قنوع، أقضي الحياة على ماء البئر المالح، وإذا لم يكن لي شيء أسدّ به جوعي، أضطرّ إلى العودة إلى بلدي دون أن أحقّق شيئاً من هدفي.

ثمّ تضرّعت إلى الله سبحانه وتعالى وصلّيتُ ركعات وبعد الزيارة والصلاة ودّعتُ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وخرجتُ من الحرم الشريف متوجّهاً إلى الدرس، وفي الطريق التقى بي شخص في زيّ الأعراب لم أعرفه ولم أره من قبل، فسلّم عليّ وصافحني ووضع ظرفاً في يدي عند المصافحة ثمّ ودّعني وذهب.

ولمّا ذهب وصرتُ وحدي فتحتُ الظرف فوجدتُ فيه مقداراً كبيراً من المال، فصرفته على نفسي وإدارة شؤوني في فترة من الزمان حتى انتهى.

ولمّا انتهى وبقيتُ مدّة بلا شيء وأمضّ بي الجوع جئتُ مرّة أخرى إلى الحرم الشريف وقلتُ للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد الزيارة والصلاة، والدعاء والتضرّع ما قلته في المرّة السابقة ثمّ ودّعته وخرجت، ولما خرجت من الحرم الشريف وصرتُ في بعض الطريق التقى بي نفس الرجل الذي التقيت به آنفاً فصافحني وسلّمني ظرفاً آخر ثم ودّعني وانصرف، فذهبتُ فلما وصلتُ إلى المدرسة ودخلتُ في حجرتي فتحت الظرف، فوجدتُ فيه مالاً كثيراً، فأخذته وشكرتُ الله تعالى عليه ثم صرفته في شؤوني حتى انتهى وعادت همومي من جديد.

ولكن للمرة الثالثة ذهبتُ إلى حرم الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وقلت له ما قلت كالسابق وجرى لي ما جرى من الالتقاء بالرجل وتسليمه المال إليّ.

وفي هذه المرّة لمّا انتهى المال جاءني نجل السيّد أبو الحسن الأصفهاني (قدس سره) واسمه السيّد حسن الذي استشهد في ما بعد وقال لي: أن السيد الوالد يسأل عن صحّتك ويحبّ لقاءك.

فقمت وتهيّأتُ لزيارته، فلمّا وفدتُ عليه رحّب بي كثيراً، وأخذ يتفقّدني ويسأل عن حالي حتى وصل إلى السؤال عن حالتي المعيشيّة.

فقلت له: أنّ والدي يبعث لي شيئاً من المساعدة ولم أشرح له بقيّة قصّتي ولا ما وقع لي بعدها.

ثم لما أردتُ الانصراف أعطاني السيّد ظرفاً فيه شيء من المال، وأجرى لي بعده من ماله ما يكفيني، وبذلك أمضيتُ أيّام دراستي الدينية ورجعتُ بعدها إلى بلدي للتبليغ والإرشاد، ولكن لم ألتق ـ بعد تعرّفي على السيّد أبو الحسن الأصفهاني (قدس سره) وإسعافه لي ـ بذلك الرجل الذي كان يسعفني وهو في زيّ الأعراب.

ويظهر من هذه القصّة بوضوح أنه ـ عادة ـ متى ما توفّر السبب الظاهري انقطع السبب الخفيّ في الأمر، كما أنه يظهر منها أيضاً كيف يكابد الحياة ويتحمّل مشاقّها أصحاب النفوس الكبيرة، وذووا الهمم العالية، وأولوا الأهداف النبيلة، فيجدّون ويجتهدون من أجل التوصّل إلى إصلاح أنفسهم وهداية الآخرين.

٢٢

لا تبع آخرتك بدنيا غيرك

كان هناك عالم آخر من علماء (كرمان شاه) وهو المرحوم الشيخ فرج الله الموموَندي، وكان أيضاً من أصدقاء المرحوم والدنا ومن تلاميذ المرحوم الميرزا محمّد تقي الشيرازي (قدس سره) وقد نال على يديه درجة الاجتهاد.

وكان من امتيازات هذا الشيخ (رحمه الله) أنه كان ملتزماً أشدّ الالتزام بقوانين الشريعة وأحكام الدين الإسلامي الحنيف، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخشى أحداً حتى أصبح مطارداً من قبل النظام الجائر، نظام البهلوي، ومطلوباً للقبض عليه.

فلما ألقي القبض عليه يقول: جاءوا بي إلى ضابط من ضبّاط النظام ولم أعرف هل أنه كان مسلماً أو أنه لم يكن له دين أصلاً، فإنهم لمّا أدخلوني عليه رأيته مستلقياً على كرسيّ له وبيده جريدة يطالعها، فلمّا سلمتُ عليه لم يرد سلامي وإنما ردّ عليّ بالسباب والكلمات القبيحة، وليس هذا عجيباً لأنّ الناس على دين ملوكهم.

والموقف كان مزرياً إلى درجة جعلني أتأثّر بشدّة، فأخذتُ أتمتم مع نفسي وأقول: يا صاحب الزمان إني جمدي لك وهذا جندي للبهلوي، سيّدي أنت تعرف بأنّي أطلب العلم لإصلاح نفسي، ولهداية الأمة، هذه الأمّة التي أصبحت تعاني من الانحرافات التي أشاعها البهلوي والمبادئ الضالّة التي روّجها نظامه، سيّدي إنك لا ترضى بإهانة أحد جنودك على يد واحد من جنود البهلوي.

وأخذتُ أتوسّل بالإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بتوجّه وانقطاع، وذلك الضابط ما زال يسبّني أيّما سبّ، ويقع فيّ أيّما وقيعة، شتماً وقذفاً بلا هوادة ولا رحمة، وبينا هو كذلك وإذا بعقرب كبيرة تقع من السقف وبلا سابق إنذار على صدره وتضطرّه إلى أن يتركني ويلوذ بالفرار ذليلاً خائفاً وجلاً مرعوباً، وهكذا تخلّصتُ والحمد لله من شرّه متيقّناً من أن هذا الخلاص هو بلطف الإمام الحجة (صلوات الله عليه).

كان هذا ما أغاثني به مولاي صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بالنسبة إلى هذا الضابط وتداركني بالخلاص من ظلمه وشرّه، ولكن لم يكن آخراً، فقد انصبت على هذا الضابط سلسلة من المشاكل والمصائب أودت أخيراً بحياته وتركته فريسة للموت وعبرة لمن اعتبر.

وقد رأيته في أخريات أيامه ضعيفاً نحيفاً مصفرّ اللون شاحب الوجه، فتحقّقتُ عن سبب ذلك، فتبيّن أن جماعة من أهل تلك المنطقة قد ضاقوا من ظلمه وجوره، وثقل عليهم سوء سلوكه وتصرّفاته، فأخذوا يتربّصون به الدوائر، ويترصّدونه للانتقام منه ومن أعماله العشوائية، ويتحيّنون الفرصة لمجازاته على وحشيّته وسوء أدبه.

وبالتالي عثروا عليه في مكان وحده، فأخذوه من دون أن يعلم بهم أحد من جلاوزة النظام، ومن دون أن يراهم أحد حتى يغيثه أو يخلّصه من أيديهم، أو يخبر عنهم أجهزة النظام وأعوان السلطان، ولذلك أخذوه بكل بساطة إلى مكان مجهول، ليذيقوه بعض الذي عمله تجاه الناس الأبرياء، ويَرَونه شرّ ما يصنعه بالآخرين من بني نوعه.

وبالفعل فقد ذهبوا به خارج البلد وفي مكان مستور عن أعين الناس وغلّوا يديه ورجليه وتركوه وحده، ثم جاءوا بدبّ وحشي صغير وربطوه بالقرب منه، والدبّ هذا وإن كان صغيراً لا يمكنه افتراس الإنسان، إضافة إلى

إنهم كانوا قد قيَّدوه بما لم يتمكّن معه من الافتراس، لكن شكله المخيف وصورته الموحشة قد يفرغ قلب الإنسان ويملأ جوفه خوفاً ورعباً.

وبالفعل فقد امتلأ قلب هذا الضابط رعباً وذعراً، كلما رأى الدبّ ينظر إليه شزراً، ويعضّ عليه نواجذه حنقاً، وهو يتصوّر أنه يريد افتراسه وتمزيقه، ولّما مضت على هذه العمليّة فترة أيقن فيها هؤلاء الجماعة الذين أخذوه للتأديب بأنه قد تأدّب بهذا، جاءوا إليه وفكّوا الأغلال عن يديه ورجليه وأطلقوا سراحه بعد أن توعّدوه بأشدّ منها لو لم ينقلع عن سوء أعماله وشراسة تصرّفاته مع الأبرياء من الناس، لكن هذا التأديب كان له الأثر الكبير في كسر غروره وتحطيم روحيته الشريرة، وزرع الخوف والقلق في قلبه، والاضطراب الدائم في نفسه وفكره ممّا أدّى به إلى حالته المزرية تلك التي رآه الشيخ بها.

يقول الشيخ (رحمه الله): لما سمعتُ الخبر ورأيتُ ما أدّى إليه حال ذلك الضابط تأثّرتُ له كثيراً، وتأسّفتُ عليه، لماذا أصبح آلة بيد الظالم كالبهلوي وباع من أجله ليس آخرته فحسب بل دنياه أيضاً، حيث وقع في مثل هذا البلاء الذي اكتسبه لنفسه وبيديه، وفقد بذلك أمنه وسلامة روحه وفكره، كما واعتبرت من قصته أيضاً حيث رأيت أنه قد جوزي من قبل أولئك الجماعة بما يرتكبه هو بنفسه في حقّ الآخرين، فإنه عندما كان يهاجم الذي قبض عليه بتلك الشراسة، ويقذفه بوابل من السباب والشتائم، كان أشبه شيء بهذا الدبّ الوحشي الذي قرنوه إلى جنبه، حيث كان من شكله المخيف وكلامه العنيف يتصدّع قلب الإنسان ويمتلئ جوفه خوفاً ورعباً.

طبعاً هذا جزاؤه في الدنيا، وأمّا في الآخرة فإنّ في الحديث: (من أعان على مؤمن بشطر كلمة لقى الله عزّ وجل وبين عينيه مكتوب: يائس من رحمة الله)(١٦) هدانا الله جميعاً وأعاذنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

٢٣

الكياسة من صفات المؤمنين

هناك قصّة أخرى طريفة حدثت للمرحوم الشيخ فرج الله الموموَندي أيضاً، وهي:

إن المرحوم حيث كان يبعث في المسلمين اليقظة والوعي من خلال محاضراته وخطاباته، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر كان قد أصبح في نظر حكومة البهلوي عنصراً غير مرغوب فيه، وموجوداً مزاحماً ومخلاً بأمن النظام، ولذلك بعثوا إليه ضابطين لإلقاء القبض عليه.

ولكن الضابطين حيث كانا يجهلان المنطقة لم يعثرا على الشيخ كلّما بحثا وفتّشا عنه، حتى دفع بهم الأمر إلى أن يدخلا مسجداً كان في طريقهم فيسألا المصلّين عنه.

فلمّا دخلا المسجد كان وقت الصلاة، وقد أقيمت فيه الجماعة واصطفّ الناس للصلاة والإقتداء بإمام جماعتهم، فتريّثا حتى إذا قضيت الصلاة جاءا إلى إمام الجماعة الذي كان يحتفّ به كثير من الناس وسألاه عن الشيخ الموموندي.

١٦- آمالي الطوسي: ج١ ص ٢٠١ ب ٧ ح ٤٠.

ولمّا سألاه عنه عرف إمام الجماعة أنّ هذين الضابطين من جلاوزة البهلوي ويريدان إلقاء القبض على الشيخ، كما وعرف من سؤالهما أنهما يجهلان الشيخ ولا يعرفانه، ولذلك فكّر في أن يجيبهما بجواب يلقي في قلبيهما هيبة الشيخ وعظمته، ممّا يجعلهما ينصرفان عن مهمّتهما.

وكذلك فعل، حيث إنه تجاهل سؤالهما وأخذ يستوضحهما في السؤال عن الشيخ، وهما يقدّمان له التوضيحات في ذلك، ويذكران له مواصفات الشيخ ومشخّصاته، حتى إذا أوضحا مرامهما ولم يدعا على ما يريدانه من غبار، صاح إمام الجماعة بهما فجأة: تقصدان آية الله الشيخ فرج الله؟! ثمّ قام ووضع يديه على رأسه وأخذ يرعد بهما كالصاعقة وهو يقول: سماحة آية الله... سماحة آية الله...

ولما رآه أصحابه المحتفّون به وهو يفعل ذلك قام الجميع ووضعوا أيديهم على رؤوسهم وفعلوا كفعله، مما أثار دهشة الضابطين، وجعلهما يحتاران في أمرهما، ويفكّران في الانصراف عن مهمّتهما، لما ألقي من الرعب في قلبيهما، والخوف في نفسيهما.

عندها التفت إليهما إمام الجماعة وقال لهما: إني من تلاميذه فإذا كان هناك أمر فقولا لي حتى أخبره به، فإنه لن يمكنكما مواجهته، لأنّ أهل هذه المنطقة يحبّونه حبّاً عظيماً ويحدقون به دائماً يحفظونه من كل سوء وخطر، وإذا أحسّوا بأنّكما تنويان السوء في حقّه لن يؤمنكما من بطشهم أحد.

نظر أحد الضابطين إلى الآخر وقالا في جوابه: نسأل عن أحواله، ثم اعتذرا من إمام الجماعة وخرجا من المسجد وعادا إلى محلّهما خائفين خائبين.

ثم أبرقا إلى المركز بأنّ الشيخ الذي أمرنا بإلقاء القبض عليه مهمّ إلى درجة ما أن يسمع الناس اسمه ـ كأنهم قد سمعوا اسم الإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ـ يقومون له تعظيماً واحتراماً، ويضعون أيديهم على رؤوسهم إجلالاً له وإكراماً، وإلقاء القبض عليه يعني تفجير الوضع وإشعال الفتنة والحرب، فألغت الحكومة قرار القبض عنه.

وهكذا استطاع إمام الجماعة بفطنته وكياسته أن يحفظ الشيخ من الوقوع في يد الطاغية الديكتاتور، وأن يخلص المنطقة نفسها من نار الحرب والدمار.

٢٤

الإمام (عليه السلام) يعزل قاضيه

للقضاء في الإسلام أحكام خاصّة تشدّد على القاضي لئلاّ يُرتشى ويجور في الحكم، وتسهّل على المتقاضين لئلاّ يضيع حقّهم ويتلف وقتهم، والقصّة التالية مثال على ذلك:

ورد في كتاب (مستدرك الوسائل)(١٧): أن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كتب إلى أحد قضاته، وهو أبو الأسود الدوئلي، كتاباً يعزله فيه عن منصب القضاء.

١٧ـ مستدرك الوسائل: ج ١٧ ص ٣٥٩ ح ٢١٥٨١.

فلمّا وصل الكتاب إلى أبي الأسود الدوئلي واطّلع على عزله تأثّر كثيراً، لأنّ عزل القاضي عن منصبه معناه: سقوطه عن مؤهّلات القضاء وعن مكانته الاجتماعية، ولذلك جاء إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مسرعاً وقال: يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني عن منصب القضاء وما خُنتُ وما جنيت؟

فقال له الإمام (عليه السلام): نعم، إنّك لم تخن ولم تجن، ولم ترتكب ما يسقطك عن عدالتك، ولكن بلغني عنك ما يسلب منك مؤهلات القضاء.

فقال أبو الأسود متسائلاً: وما هو ذلك الذي بلغك عنّي يا أمير المؤمنين (عليه السلام)؟

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): بلغني عنك أن صوتك يعلو صوت الخصمين! وهذا ممّا لا يليق بالقاضي الإسلامي ويسقطه عن أهليّته لتصدّي القضاء.

وبالفعل فإن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) عزله عن القضاء لأجل ذلك، مع أنّ أبا الأسود كان من تلامذة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن أصحابه، وهو الذي أعطاه الإمام أصول النحو العربي وأمره بأن يُتمّه ويشرحه بتفصيل وقد فعل، لكنّه لأجل هذه الخصلة فقط يعزله الإمام عن منصبه، ليقول للمسلمين وللأجيال الصاعدة: أن الحكم في الإسلام مسؤولية كبرى تهدف خدمة الناس، وتوفير حقّهم عليهم، وتقدير عواطفهم ومشاعرهم، وليس كما هو في عالمنا اليوم، استهتار بالناس، وتضييع لحقوقهم، وإتلاف لعمرهم ووقتهم، وتلاعب بشؤونهم ومقدّراتهم، حتى أن المتخاصمين أحياناً يموتون ولم تفصل بعد قضيّتهم، وإلى أمثال ذلك من الاستخفاف بالناس وبحقوقهم.

٢٥

التقاعس عن العمل

الإسلام بمقدار ما يهتمّ بالآخرة يهتمّ بالدنيا أيضاً، ففي نفس الوقت الذي يأمر بالصلاة والصيام، يأمر بالمعاش وتحصيل الرزق، وقد دأب المسلمون الأوائل على ذلك. وقد ورد في أحوال أبي الأسود الدوئلي الذي اضطلع بعلم النحو وشرح أصوله وقواعده بأمر الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ـ كما سبق ـ أنه كان يملك دكّاناً في الكوفة يكتسب فيه هو وأولاده، وفي أواخر حياته حيث أصابه الضعف والكبر، واشتعل شعر رأسه ووجهه شيباً، زاره في بيته واحد من الناس، فلمّا دخل عليه رآه من شدّة الضعف قد تمدّد في فراشه، فأقبل عليه يتفقّده ويسأل عن أحواله وأبو الأسود يحيّيه ويرحّب به ويطيب مجاملته ويحسن ضيافته.

قال: وبينا أنا كذلك وقد قضيت وطراً من زيارته وهممتُ بالانصراف إذ أقبل إلى أبي الأسود غلامان حدثان فحيّوه وأخذا تحت إبطيه وهما يعتذران منّي وهو كذلك يقدم اعتذاره.

فقلت له: إلى أين يا أبا الأسود؟

قال: إلى الدكّان، من بعد إذنك.

فقلت له متعجّباً: أنت مع كبرك وشدّة ضعفك ووجود أولادك إلى جانبك غنيّ عن العمل والتكسّب، فلماذا تتجشّم عناء الذهاب إلى العمل؟

فأجاب: إني لو لم أذهب إلى الدكّان لكسب العيش وطلب الرزق، وأبقى جالساً في البيت أو مستلقياً في

الفراش، يذهب جلالي، وينسلخ عنّي بهائي، ويستصغرني كل أحد حتى هذه السخلة ـ وأشار بيده إلى معزة هناك ـ مبالغة منه (رحمه الله) في التأكيد على أنه ينبغي للإنسان أن يعمل ويكتسب ويكون عنصراً نافعاً في المجتمع، ولا يترك الكسب والعمل مع قدرته عليه فيكون كلاً على الناس ولو كان يعيش لحظاته الأخيرة.

وهذا درس منه (رحمه الله) للذين يتقاعسون عن العمل بحجج واهية مثل التقاعد أو الشيب وما أشبه ذلك، بل ينبغي للإنسان أن يعمل مادام في الحياة، ولو كان عمله مجرد الحضور في الدكّان والجلوس فيه.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى:

يحثّ الدين الإسلامي ويؤكّد كثيراً على توطيد العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة الذين يشكّلون لبنات المجتمع، بل أن الأسرة في نظر الإسلام هو المحيط الاجتماعي الصغير الذي يتكوّن منه المحيط الاجتماعي الكبير، فسلامة محيط الأسرة له الأثر الكبير في سلامة محيط المجتمع، كما أن فساده له الأثر البالغ في فساد المجتمع، وانطلاقاً من هذه النظرة الثاقبة، يحبّذ الإسلام أن تعيش الأسرة في حالة يسود بين أفرادها المحبّة والعاطفة، ولا ينتهي الأمر بهم إلى أنه لو أصاب أحدهم الشيب يتركونه وشأنه دون أن يهتمّوا به أو يتعاطفوا معه، فإنهم إن فعلوا ذلك ترتّب عليه أثران سيّئان أحدهما أسوأ من الآخر:

الأول: إنه بحسب القاعدة المطّردة في الحياة، والمعروفة لدى الجميع، والثابتة عبر التجارب اليومية، قاعدة (كما تُدين تُدان)(١٨)، سيتعرّض الشباب الذين يتعاملون مع كبار السنّ بهذه المعاملة إلى المكافأة بالمِثل يوماً مّا، فإنهم سيكبرون وسيتعامل معهم أولادهم بنفس المعاملة، وهل يفعل عاقل مثل ذلك؟

الثاني: إنه بحسب القاعدة النفسية الثابتة في علم النفس، والمسلّمة عند علماء الإنسان والاجتماع قاعدة (المؤانسة والمؤالفة، والتعاطف والتحبب) ربما يتعرض كبار السن ـ الذين تشتد فيهم هذه الحالة النفسيّة أيّام كبرهم وذلك عندما يحسّون بأنهم فقدوا من يؤانسون ويؤالفون، ولم يجدوا من يبادلونه مشاعرهم وعواطفهم ـ إلى أن يقيموا علاقات عاطفيّة مع ما لم يكن مشروعاً ألفته ومؤانسته لا دينياً ولا إنسانياً، كالألفة مع الكلاب والقطط وما أشبه ذلك مما هو شائع في المجتمعات الغربية، حيث يألفون أمثال هذه الحيوانات، لإشباع عواطفهم وأحاسيسهم الجيّاشة.

وهذا مما يترتّب عليه آثار مؤسفة، مثل الابتلاء بالأمراض الجسدية والنفسية، وربما يصل الأمر بهؤلاء أو غيرهم من الشباب إلى أن أحدهم لا يكتفي بتبادل العواطف والمشاعر مع هذه الحيوانات التي يألفونها، بل يستبدّ بهم حسّ النقص العاطفي إلى إشباع حتى غرائزهم الجنسيّة معها ممّا يجرّ عليهم بلاء الأمراض المعدية والفتّاكة والتي تودي أخيراً بحياتهم وتقضي بقساوة وضراوة عليهم، وذلك بسبب ذويهم الذين هجروهم وحرموهم من تبادل عواطفهم ومشاعرهم مع بني نوعهم بصورة مشروعة.

ومن الطبيعي للإنسان وإن كبر سنّه وطال عمره أن يشبع عواطفه وغرائزه، فإذا لم يجد إشباع ذلك عن طريق الأساليب المشروعة فربّما يحاول التشبث بالأساليب اللامشروعة، وهنا يمكن الخطر.

إذن، فمن اللازم على كل إنسان له شمّة من الإنسانية والعقل، بل ومن العاطفة والمحبّة أن يراعي عواطف الآخرين ويقدّر مشاعرهم وخاصّة كبار السنّ منهم، وذلك:

١٨ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٥٣.

أولاً: وقاية لمستقبلنا فإنه كما تدين تدان.

وثانياً: ضماناً لسلامة مجتمعاتنا من الأمراض الجسدية والنفسية، وهذا ما أكده الدين الإسلامي في مجالات شتّى.

٢٦

المؤمن ينظر بنور الله

المصداق الكامل للمؤمن هو رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمّة من أهل بيته المعصومين (عليهم السلام) ثم مَن حذا حذوهم وانتهج سيرتهم، وفي مقدّمتهم العلماء، والقصّة التالية تشير إلى بعض هذا المعنى:

يقال أنه كان يعيش في مدينة أراك(١٩) عالم زاهد، وكانت تربطه علاقة وثيقة بأحد علماء قم المقدّسة، واستمرّت هذه الصداقة بينهما إلى أن أصاب العالم القمي المرض وأشرف على الموت، وصار في إغماء شديد ممّا دعا ذويه إلى مدّ رجليه وإسبال يديه واليأس من حياته واليقين بموته.

فأخبروا صديقه العالم في أراك يعزّونه بوفاة صديقه العالم في قم ويطلبون منه مشاركته في تجهيزه وتشييعه.

فأجابهم عالم أراك: بأن صديقه لم يمت وتركهم.

فاتّصلوا به ثانية وأخبروه بأن صديقه قد مات وطلبوا منه التعجيل بالقدوم إلى قم للمشاركة في مراسمه.

فأجابهم ثانية: بأنه لم يمت.

فاتّصلوا به ثالثة وأخبروه بموت صديقه وأكّدوا عليه التعجيل في القدوم إلى قم.

وللمرّة الثالثة أصرّ عالم أراك على جوابه وقال لهم: إنّ عالم قم لم يمت.

أثار هذا الإصرار من عالم أراك تعجّب المقربين منه وإنكارهم في أنفسهم عليه، ولكن بعد فترة جاءهم خبر بعكس ذلك، حيث أخبروهم بأن العالم القمي كان في حالة الاحتضار والإغماء ولم يمت، وإنما كانوا هم مخطئين.

فلما تبيّن الأمر أقبل أولئك النفر الذين أنكروا في أنفسهم على عالم أراك إصراره على عدم موت صديقه العالم معتذرين وقالوا وهم يسألون بإصرار عن مصدر اطلاعه: من أين علمتم بعدم موت صديقكم العالم؟

فأجابهم بعد امتناع شديد منه، وإصرار كثير من أولئك: بأنّ العالم كما في الروايات إذا فارقت روحه الحياة تبكي عليه الملائكة، وإني لما أخبرتُ بموت صديقي عالم قم نظرتُ إلى السماء فلم أرَ الملائكة في هذه الحالة، فأيقنتُ من انّ صديقي العالم في قم لم يمت بعد، وإنما هو في حالة إغماء وغيبوبة تصوّر ذووه على أثرها أنه قد مات.

نعم، هكذا يكون المؤمن الكامل.

١٩- إحدى المدن الإيرانية.

٢٧

الفرق بين التعاملين

اليهود كما وصفهم القرآن الحكيم هم الأعداء الألدّاء للمسلمين، وقد حملهم على عدائهم هذا أمور:

منها: جهلهم بالحقّ، ومن المعلوم أن الجاهل بشيء يتّخذ موقفاً معادياً له.

ومنها: غرورهم، والمغرور لا يذعن للحقّ.

ومنها: أنانيتهم، والأنانية لا تسمح لصاحبها قبول الحقّ، بل ولا الاستماع إلى صاحب الحقّ، لأنه يرى نفسه فوق الآخرين، فلا يأذن لنفسه أن يتنازل إلى مستواهم، ولذلك ادّعى اليهود لأنفسهم أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنهم شعب الله المختار وما أشبه ذلك.

لهذه الخصال وغيرها عادى اليهود المسلمين أشدّ عداوة وكادوهم كل كيد، وتربّصوا بهم الدوائر، متغافلين حسن معاملة الرسول (صلى الله عليه وآله) لأسلافهم يهود المدينة وأطرافها مع ما نقضوا معه من العهود والمواثيق ومع كثرة ما غدروا به وحاربوه، ومتجاهلين إسلام أسلافهم عامة يهود الحجاز عندما أعلن الرسول (صلى الله عليه وآله) قانون الضمان الاجتماعي في الإسلام وقال ما مضمونه: من مات وترك شيئاً فلورثته، ومن ترك دَيناً فعلى الحاكم الإسلامي أداؤه، فلما سمع اليهود ذلك أعجبهم دين الإسلام فدخلوا فيه. كما في رواية(٢٠).

نعم يهود اليوم تناسوا كل ذلك وتجاهلوه، فعادوا المسلمين أشدّ العداء، والقصّة التالية نموذج من عدائهم الدفين:

نقل لي أحد علماء طهران أنه كان في طهران طبيب يهودي يخالط المسلمين كثيراً ويعاشرهم حتى تعلّم كثيراً من الآيات القرآنية والروايات الدينية، وظنّ الكثير من الناس أنه قد أسلم، ولذلك أصبحت له علاقات واسعة مع الناس، وحيث كان تعامله الظاهري مع الجميع بشكل حسن توهّم حتى عائلته بإسلامه.

وعندما اقترب أجله وأشرف على الموت جمع عياله وقال لهم: لقد غررتُ المسلمين بحسن ظاهري حتى أصبح كثير منهم يتصوّرون بأنني مسلم لأنّي كنت أقرأ كواحد من المسلمين كثيراً من آيات القرآن والروايات الدينية المعروفة عند المسلمين، ولكن اعلموا أني مازلت يهودياً معتقداً ومتمسّكاً بيهوديتي وسأموت يهودياً، ثم اعلموا بأن ما تظاهرت به من الإسلام إنما كان من أجل كسب توجّه الناس إليّ لأني في بداية حياتي اطلعت على تاريخ يهود خيبر وانتصار المسلمين بعد مقتل جمع من اليهود، فحقدتُ على المسلمين وفكرتُ في الانتقام منهم لأسلافي، وتمهيداً لذلك عزمتُ على التظاهر بالإسلام وتقديم الخدمة للمسلمين بالتطبيب والمعالجة، حتى أتمكّن من أن أكسب ثقتهم وأنتقم منهم، وذلك بأن أقتل في مقابل كل يهودي قتل في معركة خيبر ثلاثة من المسلمين وخاصّة ممّن يدّعي أنه من شيعة علي بن أبي طالب الذي تمّ على يديه فتح خيبر.

٢٠ـ حول تعامل الرسول (صلى الله عليه وآله) مع اليهود راجع كتاب (ولأول مرة في تاريخ العالم) ج ١ ـ ٢ للإمام المؤلف (دام ظله).

فلمّا استطعتُ عبر مجاملاتي من كسب ثقتهم وجلب توجّههم واطمئنانهم، وتقاطر عليّ المسلمون من كل مكان بدأتُ بالانتقام منهم فكنتُ أعالج بعضهم بأدوية ليست هي دواء مرضهم، وذلك لكي يشتدّ مرضهم، وفي النهاية وعندما يشتدّ بهم المرض كنت أصف لهم دواءً فيه حتفهم وموتهم، وهكذا كنتُ أقضي على حياتهم دون أن يشعر بي أحد منهم، وبهذا الأسلوب تمكّنتُ من قتل أضعاف من قتل من أسلافي اليهود في معركة خيبر.

ثم التفتَ إلى عائلته وقال: إني آمركم أن تبقوا كما بقيت على اليهودية، وأن تحيوا عليها وتموتوا عليها، ثمّ مات.

ولعلّه لدفع هكذا أمور ردّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) الطبيب غير المسلم الذي أهداه ملك الحبشة إليه، معتذراً بأنّنا لا نمرض لأنا لا نأكل طعاماً إلاّ ونحن نشتهي الطعام، ولا نقوم عنه إلا وعن اشتهائنا للطعام، فردّه (صلى الله عليه وآله) ليكون درساً للمسلمين بتوفير الاكتفاء الذاتي لأنفسهم أوّلاً، والحذر من غير المسلمين على أنفسهم ثانياً.

وكيف كان فإن هذه القصّة بالإضافة إلى دلالتها على جهل هذا الطبيب اليهودي بتاريخ خيبر وما جرى فيها، تدلّ على شدّة عداوته للمسلمين، وذلك لأن النبي (صلى الله عليه وآله) وباعتراف من التاريخ لم يتعدّ على يهود خيبر بل عفى عنهم ومنّ عليهم ولكن اليهود هم الذين كانوا يتجاوزون حدودهم ويعتدون على المسلمين ممّا يضطّر المسلمون للدفاع عن أنفسهم.

وقد سجّل التاريخ في صفحاته: بأن قتلى تلك المعركة كانوا قليلين جدّاً مع أن الرسول (صلى الله عليه وآله) كان بإمكانه القضاء عليهم جميعاً، وذلك بحسب دلالة بعضهم على منبع مائهم وطلبه منه قطع الماء عن خيبر، ولكنه (صلى الله عليه وآله) لم يفعل ذلك، وأبدى تذمّره من طلبه ورأيه، وبعد انتهاء الحرب عفى (صلى الله عليه وآله) عنهم وأجاز التعامل معهم وترك لهم أرضهم يزرعون فيها، وديارهم يسكنون فيها، وأموالهم يفعلون فيها ما يشاؤون، وهذه الأمور ليست مجرّد ادّعاء وإنما هي أمور مشهورة في التاريخ.

بل وأكثر من ذلك فقد سجّل التاريخ زواج النبي (صلى الله عليه وآله) بصفيّة اليهوديّة بنت رئيس اليهود وكبيرهم، والتي كانت أسيرة بيد المسلمين، وهذا ما لا يفعله أحد الرؤساء الفاتحين بأحد من الأسرى، لما فيه من الاحترام الكبير لصفيّة نفسها ولقومها وعشيرتها، لكن الرسول (صلى الله عليه وآله) فعل ذلك حيث أطلق سراحها وتزوّجها بموافقتها وجعلها من أمّهات المؤمنين(٢١).

وعليه، فهل يا ترى كان عمل هذا الطبيب اليهودي بالمسلمين مع ذلك الوصف منطقيّاً يرضى به الوجدان والضمير، ويقرّه العقل والطبع السليم؟! كلاّ، فإن من راجع تاريخ خيبر بشكل خاص، وتاريخ اليهود بشكل عام، وعرف معاملة الرسول (صلى الله عليه وآله) معهم ـ تلك المعاملة الطيّبة التي أمر بها الله والإسلام ونفّذها رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) فيهم، ولم يكن ذا تعصّب وعناد، وإنما كان ذا وجدان ونصفة ـ لآمن بالله وبرسول الإسلام الذي بشّر به نبيّهم موسى كليم الله، ولاعتنق الإسلام كما اعتنقه أسلافهم حين عرفوا الحقّ في الإسلام وعلموا أنه هو ذلك الدين الذي يصدّق بموسى (عليه السلام) ويكمّل دينه.

٢١ـ من أجل التعرّف على تاريخ خيبر راجع كتاب (ولأول مرة في تاريخ العالم)، لسماحة الإمام المؤلف.

٢٨

محك الاختبار

الصفويّون لم يكونوا علماء بل كانوا ملوكاً، ولكنهم احترموا العلماء وأكرموهم، وساروا في البلاد والعباد حسب إرشاداتهم وتوجيهاتهم، ولذلك سعدوا هم بأنفسهم، وأسعدوا الناس، ودليل ذلك هو إنجازات العهد الصفوي في مجال السياسة والاقتصاد والعلم والثقافة، وما قدّمه ذلك العهد للأجيال من خدمة إنسانية وثقافيّة.

وهذه من سنن الله تعالى في الكون، فإنّ الأمّة إذا احترمت علماءها الربانيّين ورجال دينها الواقعيين عاشت مرفوعة الرأس سعيدة في الدنيا والآخرة، وإذا خذلتهم خُذلت، والقصّة التالية فيها بعض الإشارة إلى اهتمام الصفويّين بالعلماء وإكرامهم:

يقال: أنه إبان الحكم الصفوي استدعى النظام مائة وعشرين عالماً من علماء جبل عامل بلبنان وطلب منهم البقاء في إيران من أجل نشر التشيّع وتعميم ثقافة أهل البيت (عليهم السلام) وبيان الأحكام والمعتقدات الشيعية ـ المبتنية على القرآن الكريم، وسنّة الرسول (صلى الله عليه وآله) وتعاليم أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) ـ للناس وإرشادهم بالفعل والقول.

وكان من بين هؤلاء العلماء: الحرّ العاملي (قدس سره)، والمحقّق الكركي (المحقّق الثاني)(قدس سره) والشيخ حسين والد الشيخ البهائي (قدس سرهما) وغيرهم ممّن وردت أسماؤهم في كتب التاريخ.

والطريف حسب ما ينقل: أن الشيخ البهائي كان صغير الجثّة ولم يكن له هيكل علمائي، وحيث إن الناس غالباً يغرّهم المظهر، ولم يستثن من ذلك حتى الملك، فكّر في كيفية جلب انتباه الملك إليه وذلك قبل الدخول عليه، وبينا هو يفكّر ويجوب شوارع وأزقّة العاصمة الصفوية أصفهان وهو في طريقه إلى قصر الملك، إذ وقع نظره على رجل مشغول بالندافة فرآه جميل الهندام، حسن السيماء، مربوع القامة، ذو لحية كثة بيضاء، فتقدّم إليه وقال له: يا شيخ كم تجني من المال في كسبك خلال اليوم الواحد؟

فأجاب: بأنه كذا من المال.

فقال له الشيخ البهائي: هل لك في الموافقة على أن تأتي معي وتصحبني في مهمّتي، وأعطيك أجرك بما يساوي دخلك اليومي، بشرط أن لو سألك أحد شيئاً ولم تعرف الجواب أن تشير إليّ وتقول: قل يا ولدي؟

فوافق النـدّاف على ذلك، وذهبا معاً، فهيّأ الشيخ البهائي لذلك النـدّاف ملابس العلماء ورجال الدين: عمامة وعباءة وقباءً وجبّة وألبسها إيّاه، فظهر بمظهر العلماء، وسارا معاً إلى قصر الملك، حتى إذا وصلاه قدّمه أمامه وسار هو خلفه ودخلا القصر، فاحترمهما الحجّاب وأدخلوهما على الملك.

رحّب بهما الملك ـ وهو يظن أن الأول المتقدّم هو العالم، وأن الثاني المتأخّر هو خادم العالم ـ واستقبلهما وأدخلهما مجلسه، وكان المجلس غاصّاً بالشخصيات والعلماء، وبمجرّد دخولهما المجلس قام الجميع احتراماً لهما وفسحوا المكان من أجلهما، فسلّما على الجميع واتّخذا مجلسهما بين سائر العلماء.

ثم عمّ المجلس هدوء عقبه بعد ذلك طرح بعض المسائل العلمية ودارت حوله بحوث ونقاشات، فتوجّه الجميع إلى هذا العالم الجديد وطالبوه أن يدلي برأيه، فارتبك النـدّاف وتوجّه إلى الشيخ البهائي ولكنه من شدّة ارتباكه عوض أن يقول له: قل يا ولدي، قال له: كُل يا ولدي، أو: قُل يا ولدي.

فأجاب الشيخ البهائي بما أعجب الحاضرين والملك أيضاً يستمع إليه.

فطرحوا عليه سؤالاً تلو الآخر وفي كلّ مرّة كان الشيخ البهائي هو الذي يبدي رأيه ويجيب على السؤال حتى أحسّ الملك بأنّ الذي في مظهر العالم لم يكن عالماً، وأن العالم هو ذلك الذي لا مظهر له، ومن أجل أن يتحقّق في الأمر حتى يعرف صدق حدسه من خطأه فكّر في أخذ العلماء إلى عمارة جديدة وقصر كبير كان بجنب ذلك القصر ويستشيرهم في خصوص القاعة الكبيرة التي كانت تتوسّط ذلك القصر.

فلما انتهى بهم إلى القاعة وسألهم مستشيراً عنها قائلاً: في رأيكم لأيّ شيء تفيد هذه القاعة؟

فأجابه أحدهم: إنّ هذه القاعة تفيد لإجراء المؤتمرات الضخمة.

وأجاب آخر: إنها تفيد لجعلها مكتبة عامة يرتادها الباحثون.

وقال ثالث: إنها تفيد لاستضافة الوافدين على الملك.

حتى إذا وصل الدور إلى النداف التفت إليه الملك وسأله عن رأيه فألقى نظرة إلى الأطراف ثم تنحنح وقال: إنّ هذه القاعة تصلح بنظري أن تكون قاعة للندافة.

فضحك الملك واطمأنّ لصحّة حدسه بأن صاحب المظهر العلمائي لم يكن هو العالم، وإنما العالم هو ذلك الذي لا مظهر له.

فلم يقل الملك له شيئاً حتى انتهى المجلس واختتمت الضيافة وذهب الجميع إلى منازلهم، وبعد ذلك بعث الملك إلى الشيخ البهائي (قدس سره) من يخبره بأنه قد اكتشف من خلال اختباره أنه هو العالم الحقيقي وأنه اكتشف أمر النداف.

إذن، حقيقة الإنسان وواقعيّته لا تتكشف من خلال ظاهره وهيكله، أو عبر التصوّر والإدّعاء، بل الإنسان الواقعي هو من يكشفه الاختبار وهو من لا يُهان عند الامتحان، كما قال الشاعر:

إنّ من يدّعي الذي ليس فيه*** كـذّبته شـــــواهد الامـتحان

نعم، إن من يدّعي خلاف ما عنده سينكشف أمره للناس حتى وإن لم يعمل إلاّ بالإيماء والإشارة ولم يتفوّه بكلمة واحدة، فإنه سيفتضح أخيراً لا محالة. ولعله لذلك جاء في الحديث الشريف: (طوبى لمن عرف قدره ولم يتعدّ طوره).

محبوب الجماهير

جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها(٢٢) علماً بأنه لا إحسان أكبر من الإحسان إلى الجانب الروحي من الإنسان، فرجل الدين الواقعي والعالم المتّقي يحسن إلى المجتمع الإنساني بما يسديه إليهم من خدمات معنوية ويقدمه إليهم من إرشادات دينيّة وتوجيهات إنسانية، ولذلك نرى العالم المتّقي محبوب الجماهير.

ومن أولئك المحبوبين هو آية الله الأردكاني (قدس سره) الذي كان من معاصري شيخنا الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاري (قدس سره) وكان من العلماء الأبرار، والأجلاّء الأوفياء، وكان أثناء تواجد الشيخ في النجف الأشرف متواجداً هو في كربلاء المقدّسة ومشتغلاً بالتدريس، وبتربية الطلاّب وتخريج العلماء الفطاحل من أمثال السيد محمد حسين الشهرستاني (قدس سره) الذي كان من أهمّ علماء وقته، وأوحديّ رجال عصره.

وكان الشهرستاني هذا قد سافر في إبان شبابه سفرات عديدة إلى إيران وغيرها من البلاد الإسلامية، ومن جملتها أنه سافر إلى أفغانستان، وعند دخولـه إلى كابل استقبله عالم كابل الكبير واحترمه احتراماً كبيراً، ثم اصطحبه معه إلى منزله واستضافه عنده في بيته وألقى عليه مجموعة من الأسئلة حول علم الصرف وعلم النحو، وعلم البلاغة والحساب والمنطق والكلام والأصول والفقه وغير ذلك، وكان السيّد يجيبه على أسئلته بلباقة فائقة وإتقان كامل، لأنه كان قد أتقن دروسه وأحكم في نفسه فهمها.

وكان العالم الكابلي أيضاً يعرف العلوم المتنوّعة ويتقنها، فلما رأى تفوّق السيد عليه في ذلك كلّه قام من مجلسه وأصرّ على السيد أن يجلس مكانه وأخبر الناس بأنّ السيد مادام هو موجوداً في كابل فعليهم أن يرجعوا إليه في مسائلهم وحلّ مشاكلهم، ثم قدمه للصلاة واقتدى به، مع أنه كان شيخ العلماء في كابل، وأصبح السيد لتقواه وعلمه خلال تواجده في كابل محبوباً للجميع ومرجعاً لمسائل الناس، وملجأ لحل مشاكلهم، وإماماً لمسجدهم يعتقد به الكلّ ويقتدي به الجميع بمن فيهم عالم كابل.

إذن فالعالم المخلص مع ربّه، والمتقن لدروسه، والمتّقي في أموره، والمتحلّي بالتواضع والتسامح، وبمداراة الناس ومواساتهم، يهواه الجميع، ويودّه الناس، فهو محبوب الجماهير، لأنّها ترى نفسها مدينة لإحسانه وخدماته العلمية والمعنويّة، وسيعطيه الله تعالى أجره في الدنيا قبل الآخرة.

٢٢- بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ١٤٢ ح ١.

٣٠

حسن الإدارة

(العباسية) منطقة تقع بالقرب من مدينة الحلّة بالعراق، وقيل أنها كانت مقرّ حكومة العباسيين في فترة من الزمان، ولكن تغيّرت بمرور الأيام إلى أن أصبحت أخيراً قرية صغيرة وناحية تابعة للحلّة.

وكان مدير تلك الناحية ـ إبان مرجعية المرحوم آية الله العظمى السيد أبو الحسن الأصفهاني (قدس سره) ـ رجلاً سنيّاً متعصّباً يؤذي الشيعة بلا دليل، فأخبروا السيد المرجع بالأمر وأرادوا منه أن يطالب الوزير بنقل هذا المدير إلى منطقة أخرى.

ولكن السيد أبو الحسن الأصفهاني الذي كان مديراً ومدبّراً لم يفعل ذلك، وإنما أرسل إلى أحد وكلائه في الحلّة وهو على الظاهر: المرحوم السيد محمد السماتي والذي كان هو أيضاً مديراً ومدبّراً، (وقد رأيته أيام حياته وتعرّفت عليه من قريب)، فأرسل إليه وطلب منه أن يأتي بمدير تلك الناحية إليه.

فجاء الوكيل إلى العباسية ولاقى احتراماً فائقاً من أهالي تلك الناحية، ثم التقى بمدير المنطقة وقال له: إن السيد أبو الحسن الأصفهاني يحبّ زيارتك له ويريد اللّقاء بك.

فامتنع أوّلاً من الإجابة متعلّلاً بأنه من مذهب سنّي والسيد مرجع شيعي ولا علاقة له به ولكن أخيراً وافق أن يلتقي بالسيد أبو الحسن في مناسبة مقبلة.

فلمّا حان الوقت وجاء إلى السيد أبو الحسن رحّب به السيد كثيراً وأجلسه عنده يتفقّد أحواله ويسأله عن أموره وهو يقول له: إنك مدير ناحية، والناس يتوقّعون منك المساعدة، وطبيعي أن يكون باب دارك مفتوحاً للناس، فكم هو راتبك الشهري؟

أجاب قائلاً: ثمانية عشر ديناراً.

فقال له السيد: إن هذا بالنسبة إليك قليل جداً.

فأجاب: إن هذا هو مرتب الدولة المخصّص لي.

فقام السيد أبو الحسن وأخذ من الدنانير ثمانية عشر ديناراً وقدّمها إليه بتواضع وقال له: هذا راتبك مني في هذا الشهر، وفي الشهور القادمة سأخبر وكيلي في الحلّة بتقديم هذا المبلغ إليك في كل شهر وذلك لكي تلبّي حاجات الناس وترضي مراجعيك.

فبان الخجل على وجه المدير وشكر السيد كثيراً على تفضّله، وعاد إلى العباسية ناحية حكمه وجمع أقرباءه وقال لهم: إنه قد تبيّن لي أن التشيّع هو المذهب الحق، وإني أخبركم وأشهدكم على أني دخلتُ في التشيّع وأريد منكم أن تدخلوا أنتم أيضاً في التشيّع.

فتشيّع جمع من أهالي تلك المنطقة بتشيّعهم وقد تحسّن سلوك المدير تجاه الشيعة بشكل كبير.

وكلّ ذلك من آثار تدبير السيد أبو الحسن الأصفهاني (رحمة الله عليه) وسعة صدره وبعد نظره في التعامل مع الناس وجمع كلمتهم على التقوى.

خاتمة

وهذا آخر ما أردنا إيراده في هذا الكتاب

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

قم المقدسة

محمد الشيرازي